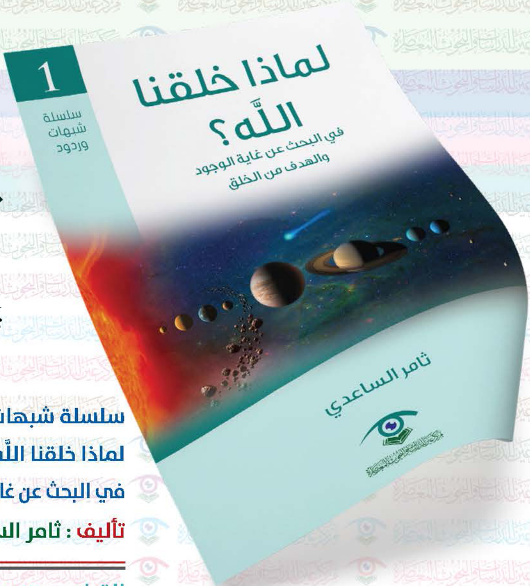


مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

سلسلة شبهات وردود

لماذا خلقنا الله

في البحث عن غاية الوجود والهدف من الخلق

س

تأليف : ثامر الساعدي

القياس: ١٢ x ١٧ عدد الصفحات: ١٧٦

سلسلة شبهات وردود......

لماذا خلقنا الله؟

في البحث عن غاية الوجود والهدف مِن الخلق

ثامر الساعدي

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

الطبعة الثانية

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

من أهداف مركز عين:

مركـز "عـين" للدراسـات الفكريـة المعـاصرة، يعنـى بتفـاعلات الواقـع الإسـلامي، ويحـاول أن يؤصـل للحلـول والمقترحـات تجـاه مشـكلات الإنسـان المعاصر..

كـما وينطلـق مـن رؤيـة راسـخة بقابليـة الحضـارة الإسـلامية عـلى قيـادة الحيـاة وتقـديم نمـوج يتناسـب مع احتياجـات العصـر مـن غـير أن ينقطـع عـن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسـعى المركـز ضـمن بـرامج بحثيـة وهمـوم ثقافيـة ودورات لكتابـة البحـوث وتصـديرها، لتعزيـز الـوعي الاجتماعـي بقضـايا الثقافـة والأفكـار ومناقشـة مطـاريح التخلـف والتسـيد لقـيم غـير أصـيلة في المجتمع..

لـيس مـن أهـداف المركـز أو مطاريحـه الاعتنـاء بالتبشـير الطـائفي، ويـؤمن أن مـا يحـدث اليـوم هـو طائفية سياسـية تسـعى لتجيير كـل الـدين والإنسـان في أتـون معركـة مصـالح دنيئـة.. ولا نمـانع مـن دراسـات تنطلـق مـن التسـامح في التعـايش والإيمـان بمشـتركات الإنسـان دون إلغـاء الآخـر مـع الاحتفـاظ بالرصـانة العلمية وشروطها..

كـما يـؤمن المركـز أن الحلـول الإسـلامية تنطلـق مـن جـذورها المناسـبة، ولهـذا فهـي تحـاول التأسـيس مـن منطلقـات اسـلامية خالصـة، بعيـداً عـن كـل التحيـزات المحيطة..

مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله تعالى على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين..

ونحن أمام سيل يُترى من الشبهات التي تضرب بعقول شبابنا وتحاول أن تثير في عقولهم وقلوبهم مجموعة من المغالطات والتشكيكات والزيف، لا بدّ لنا حينئذ من أن نقف موقف الرصد والمعالجة، فنرصد المثار منها أولاً ونعالجها ثانياً، بل ننتقل الى مرحلة الهجوم ورد الكيد ثالثاً.

ومن هنا لا بدّ لنا في هذه المحاضرات -التي ألقيناها بفضل الله وتوفيقه على مجموعة من الشباب المؤمن- أن نواجه هذه الشبهات والإجابة عنها واستخراج المفاهيم العامّة التي تتحصل في طريق البحث لتكون كبرى سيّالة، وقاعدة قابلة لأن تجيب عن إشكالات متعددة.

كما نشير الى أن هذه المحاضرات ألقيت ثم قُررت، وأضفنا لها ما رأيناه مناسباً، وكذلك مراعاتها لمناسبة الإلقاء والحديث الشفاهي لا المكتوب، وحاولنا إعادة صياغتها بما يؤهلها لتكون بشكل كتاب مع الحفاظ على السلاسة والوضوح والتعاطي مع المعلومة على أساس الفهرسة والتوضيح. والأمانة العلمية

تقتضي التنويه الى جهد الأستاذ والأخ النبيل نجوان نجاح الجدة في إعادة صياغة هذه المحاضرات وتنظيمها وتخريجها بشكل كتاب جزاه الله خير جزاء المحسنين.

ونأمل بفضل الله وتوفيقه أن تجتمع كلها لتكون حلقات متسلسلة في الإجابة عن الشبهات وردها.

إن تناول هذه الإشكاليات لم يكن بداعي الإشكال والرد فحسب، بل تناولنا الفكرة الإسلامية كلّها بحيث يطلع القارئ العزيز على المنظومة الإسلامية في أفكارها العامّة ومن ثم يجد الإشكال والجواب من خلال ذلك، أي أن الإشكال متضمن في عرض المنظومة كلّها أو المفهوم كلّه من جوانبه المختلفة لا أننا نتناول الأمر وكأنه يوجد إشكال ونريد حلّه فحسب.

ولهذه الفكرة فوائد عديدة، فالإشكال عادة يتولّد من عدم وضوح المقدمات، وعدم وضوح الفكرة فيما لو تداخلت مع بعض الأفكار الأخرى؛ ولهذا فبيان حدود المفهوم وتداخلاته وتطبيقاته والمقدمات المولّدة لكل ذلك سينتج منه الوضوح ورفع الالتباس ونقض الإشكال وحينها لا يحتاج القارئ العزيز لرد الإشكالات بل ستتضح لديه الصورة بالطريقة التي تؤهله لأن يجيب هو بنفسه عنها.

فضلاً عن طريقة التربية التي نقدمها للقارئ العزيز، ذلك أن طريقة أن نقرأ للدين بطريقة الإشكال والرد يجعل الدين في زاوية أن يقدم للناس الأجوبة عن الأسئلة المقلقة من غير أن يربّيها على زيادة يقينها وإيمانها بمبادئها، ولهذا نفضل أن نقرأ المنظومة الإسلامية في خطوطها الأساسية العامّة وحينئذ تتضح كل الملابسات فيما لو وجدت. كما نشير أيضاً، الى أن المبدأ من هذه المحاضرات ليس هو التوسّع أو التنظير الذي نسير عليه عادة في التأليف، بل غايتها الإجابة عن الإشكالية والبيان للشبهة والرد، وربّما تعرضنا لشيء من التحليل فيها.

إن سؤال الغاية من الخلق وأهميته كان قد طُرح من قبل، وفي كل الفلسفات المعاصرة والقديمة، وطُرحه أيضاً الفكر الديني والإسلامي على وجه الخصوص.

وعبّرت عنه الفلسفات المعاصرة اليوم بمصطلح (معنى الحياة الفلسفي) والذي هو سؤال فلسفي عن أهمية الحياة أو الوجود، ويُعبّر عنه بعدة صيغ، كـ"لماذا نحن هنا؟"، "ما الفائدة من الحياة؟"، "ما الغرض من الوجود؟"، "من أين نأتي؟"، "ما نحن؟"، "إلى أين نحن ذاهبون؟".

إن معرفــة الغايـــة مـــن الخلـــق ضـــروري للالتفـــات والمعرفة أولاً والعمل من أجل الوصول إليها ثانياً، وإلا لو لم يلفت العبد إليها أو لم يعلم بها لتاه عـن مقصـده فـي مسيرته فـي الحيـاة ولكان موجوداً عبثياً، يعاني من التيه المعرفي والضلال الروحي عن كل الغايات الرفيعة فما دونها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العامل بغير علـم كالسـائر علـى غير طريق، فلا يزيده بُعده عن الطريق إلا بُعداً من حاجته. والعامـل بالعلم كالسـائر علـى الطريـق الواضـح، فلينظـر نـاظر أسـائر هـو أم راجع»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «العامل على غيـر بصـيرة، كالسـاير علـى غير طريق، فلا يزيده سرعة السير إلا بُعداً»[٢].

من هنا تتأتى أهمية الإجابة عن هذا السؤال المهم، والذي يشكل أهمية قصوى في التفكير الديني والفلسفـي علـى حد سواء.

وسنحاول – قدر الإمكان – أن نعبر عمـا يواجهنـا مـن لغـة التخصص الى اللغة الثقافيـة العامّـة بحيـث لا يبقـى غمـوض لـدى

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١٥٤.

(٢) مستطرفات السرائر: ص ٦٤٤.

المتلقي ولا ترهقه بعض الأفكار الفلسفية أو العقدية لأننا نحاول تجاوز ذلك عبر توضيح المصطلح ضمناً.

اللَهُمَّ أَنْتَ ثِقَتِي فِي كُلِّ كَرْبٍ؛ وَأَنْتَ رَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ؛ وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ نَزلَ بِي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ. كَمْ مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفُؤَادُ، وَتَقِلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ؛ أَنْزَلْتُهُ بِكَ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ، رَغْبَةً مِنِّي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ؛ فَفَرَّجْتَهُ عَنِّي، وَكَشَفْتَهُ، وَكَفَيْتَهُ. فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَي كُلِّ رَغْبَةٍ.

توطئة

لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى، ولأيّ شيء خُلقنا؟.

البحث حول هذا التساؤل هو بحث عن غاية الوجود وعن الهدف مِن الخَلق، أي هو بحثٌ في الرؤية الإسلامية للكون وعن نظرتنا للكون وعن نظرتنا للغاية مِن الخَلق؛ فالغاية هي النقطة التي يسدد الرامي اليها السهم، فالفاعل المختار عندما يبتغي الوصول الى غاية ما يفكر في الغاية أولاً ثم يتبعها بالفعل الذي يحققها ثانياً، فهي نتيجة الفعل، وتسمى (العلة الغائية) لأنها الغاية من فعل الفاعل.

وهذا السؤال قديماً طُرح، وجديداً كذلك، فحق أن نسمّيه بالسؤال القديم الجديد.

قديماً منذ أوّل الخلقة، منذ آدم عليه السلام وما بعده، البشر دائماً سألوا: لماذا خُلقنا، ولأيّ شيء خُلقنا؟ وبالطبع فإن كلاً من شقي هذا التساؤل يمثل سؤالاً بحد ذاته.

هناك سُؤالان في هذا المبحث، الأوّل: لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى؟ السؤال الثاني محبوك بصيغة مختلفة ويتضمن مضامين أخرى، وإن بدا لأول وهلة أنه لا يختلف كثيراً عن السؤال الأول. السؤال الثاني: لأيّ أمرٍ خلقنا الله؟ بمعنى أنه في الرتبة الأولى

لماذا خُلقنا، وفي الرتبة الثانية بعد إذ نُخلق فلأي أمرٍ قد خلقنا؟. وبعبارة أخرى: إلى أين نحنُ ذاهبون؟.

فهذا السؤال قديمٌ جديد بالنظر لارتباطه بفطرة الإنسان وأسئلته التي يطرحها على نفسه، نظراً لأن الإنسان بدافع من فطرته يسأل لماذا خُلقت ولأيّ أمرٍ قد خُلقت؟.

اُنظر التعبير الإسلامي المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام: «رَحِمَ اللهُ امرأً عَرَفَ مِن أينَ وفي أينَ وإلى أينَ»[1]؛ فمِن أين المبدأ؟ وإلى أين المنتهى والمعاد؟ وما هو الهدف من هذه الحياة؟ وما ارتباط ذلك ببعثة الأنبياء؟ وسيتبيّن أن الكلام حول هذا التساؤل - بشقيه - مرتبط ببعثة الأنبياء بأواصر وطيدة.

وعن الأئمة عليهم السلام: (ما من يوم الا وملك ينادي من المشرق لو يعلم الخلق لماذا خلقوا قال: فيجيبه ملك آخر من المغرب: لعملوا لما خلقوا)[2].

(فمن عرف من أين جاء علم أن يذهب، ومن علم ما يصنع علم ما يُصنع به، ومن علم ما يُصنع به علم ما يُراد به، ومن

(1) الحكمة المتعالية، ملا صدرا الشيرازي: ج٩ ص٣٥٥.

(٢) علل الشرائع، الصدوق: ج١ ص١١.

علم ما يُراد به علم ما له، ومن علم ما له علم ما عليه، ومن علـم مـا عليه علم ما معه، ومن لم يعلم من أين جاء وأيـن هـو وكيـف هـو ولمن هو وإلى أين هو فذاك ممن أهمل أوقاته وتـرك مـا ندبـه الله إليه)[١].

إن أي إنسان في حياته يبحث عن غاية، ولكنـه لا يسـتطيع أن يصل بغايته الى الله تعالى، يعني أنه يصمم في قرارة نفسه وقلبـه على غاية ولكن هذه الغاية قد لا تكون هي التـي أرادهـا الله تعـالى منه لكي يمضـي فـي ضـوئها. فـالبعض تجـده يلهـث خلـف الجـاه والبعض خلف المال والبعض خلف امرأة وغير ذلك، فكـل واحـد يسعى الى غايته، ولكنه لا يستطيع أن يفـرز الغايـة التـي خلـق مـن أجلها عن تلك الغايات القصيرة والمحدودة والتي لا تشفي غليله.

وينبغي أن نعقـد البحـث الآن ضـمن محــاور وبالاعتمـــاد على مقدّمات. ومما ينبغي أن لا يغيـب عـن بالنـا أن هـذه المحـاور ليست مفيدة فقط في الإجابة عـن هـذا السؤال، إذ أنـه فـي أحيـان كثيرة سنتطرق لها وسيتبيّن منها أنّه توجـد قواعـد مـن الممكـن أن تُعتمد في الإجابة على الكثير من الإشكالات. وفـي ضـمن السـياق

(١) تفسير السلمي: ج٢ ص١٠٩.

الـذي سنسـير عليـه مـن الممكـن أن نلتـف الـى الكثيـر مـن تلكـم القواعد.

المقدمة الأولى:

فلنأخذ في بيان المقدمـة الأولـى أي مسـألة فرعيـة، لـتكن مثلاً الحكم بتحـريم الغنـاء –أو أي حكـم فرعـي آخـر. قـد يسـأل البعض: لماذا حرّم الله تعالى الغناء؟ هنا نقول: نحن إذا أثبتنا أنّ لهذا الكون خالقاً، وأنّ لهذا الوجود واجداً حكيماً، وأنّه منزّه عن العبث واللّهو، وأنّ هذا الكون برمته – بما فيـه مـن الأفـلاك والمخلوقـات وما تشتمل عليه من نُظـم دقيـق محكـم– إذا أثبتنـا أنّ لهـذا الكـون بصنعه المتقن، خالق حكيم ومنزّه عن العبث واللهو، فتكون حكمته في خلقه هي حكمته في تشريعاته.

فكونك مؤمناً بالله عزّ وجل ومؤمن بأنّه خالق حكيم ومنزّه عن العبث واللّهـو، فتشـريعه بحرمـة الغنـاء مـثلاً، أو تشـريعه بحليـة الزواج، وسائر بنود شرعه الحنيف بلا استثناء، كل بند فيها لا بدّ أن يكون مظهراً مـن مظـاهر حكمتـه، وحينئـذ يحكـم العقـل بـأن فـي الحكم الفرعي حكمة مكنونة، وأن فيه مصـلحة مؤكـدة، وبهـذا –

أي بمعرفة كون مطلِق الحكم الشرعي هو الحكيم الخبير- ينقطع السؤال عن علّة الغناء وعلّة الصوم وعلّة الصلاة.

فنظرنا هنا انصبّ ليس على الحكم نفسه وإنما على القائل به وعلى المطلِق له وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا يكفي في أن ينقطع السؤال عن علّة ما لم نفهمه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥]. ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات : ١٤].

وقد اتضح الآن أن هذه القاعدة المهمة تركّز على ضرورة الحكم بترتب الحكمة التشريعية على إثبات وجود الخالق المشرع الحكيم؛ فما دمنا قد أثبتنا أن لهذا الكون خالقاً، وأن هذا الخالق حكيم ومنزّه عن الظُلم والعبث، فلا نتوقّع أن يكون في تشريعه سبحانه أي ظلم أو عبث بل سيكون تجلياً لحكمته ورحمته وعدله. وهذا الكلام بحذافيره ننقله للإجابة عن السؤال: لماذا خلقنا الله.

أضف إلى هذا أن الله تعالى غنيٌّ مُطلقاً. الآية الكريمة تقول: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] ، فهو غنيّ بالذّات،

وغنيّ بالصفات، وغني بالأفعال، فهو تعالى لا يحتاج الى أن يظلم أو يتعسف أو الى أن يحكم بخلاف الحكمة، فهو غنيّ بالذات؛ بمعنى أنّه ليس محتاجاً إلى الغير. أما المُمكنات -التي لم توجد ثم وجدت- فهي في غاية الاحتياج إلى الله عزّ وجل؛ لأنّ الحاجة من صميم المُمكن بسبب فقره الذاتي وحاجته الى أن يوجد ويقوم بغيره. إذن فالله تعالى بالذات غنيٌّ مطلقاً ولا يحتاج في علمه وفي عدله وفي قدرته إلى غيره. إذن في أفعاله كذلك هو سبحانه غنيٌّ مطلقاً لا يظلم ولا يحكم إلا بحكمة متناهية.

إن قيل بأنه سبحانه ليس غنياً في فعله، فهو عبارة أخرى عن نقص وجودي فيه وقد تنزّه الله تعالى عن كل نقص وكان دائماً أبداً أزلاً؛ لأنه غير مخلوق فهو أبدي (لا نهاية له) وازلي (لا بداية له) وواجب الوجود بالذات أي أن وجوده لا يمكن فيه الاحتمال أو الإمكان كما نحن حيث نحتاج الى موجد، بل الوجود ضروري له، فكل موجود يدل على موجِد ولا بدَّ أن ينتهي الى خالق صانع وهو سبحانه الغني المفيض.

وعليه، فالقرائح السليمة تقول بالبديهة العقلية من أن فاقد الشيء لا يعطيه، إذ نحن الفاقدون للكثير من الأمور محتاجون في وجودنا إلى الله عزّ وجل ولا نستطيع أن نعطي الوجود، بينما الله عزّ

وجل هو الغني المعطي وليس بحاجة إلينا، فالنتيجة أنّه غنيّ بالأفعال ولا يُمكن تصوّر النقص فيه سبحانه.

المقدمة الثانية:

نطلق إلى أعمق بقليل مما مرَّ في المقدمة الأولى فنقول: إن الفعل الصادر من الله تعالى ما دام غنيّاً، فأفعاله تعالى بالنتيجة هي: حكيمةٌ دقيقةٌ في غاية الغنى والكمال. فلو تأملنا في معنى أفعاله عزّ وجل ومعنى كونه حكيماً، فمن الممكن أن نقول أنه سبحانه يستحيل في حقّه العبث واللهو والباطل.

لو سألنا على ماذا ينطوي الفعل الحكيم، وما الذي يتضمنه؟ مرّة نقول (فلان من الناس حكيم فعله)، ومعناه أن فعل فلان ينطوي على غاية حكيمة. لكن هناك فرق بين الغاية في الفعل الإنساني والغاية في الفعل الإلهي. الغاية في الفعل الإنساني موجهة دائماً بأسباب النقص والمحدودية، بمعنى أن هذا الإنسان إذ يفعل هذا الفعل يفعله بداعي الاستكمال، فإذا فعل الإنسان فعلاً حكيماً فالغاية التي يسعى إليها هي أن يستكمل ما فيه من نقص، بينما الفعل الإلهي لا يصدر استكمالاً لفاعله؛ لأن الاستكمال فرع النقص، لا بدّ من وجود نقص حتى نكمله بالفعل، بينما الله عزّ

وجل لا تتصور قابلية الاستكمال في حقه؛ لأنّه الكمال المحض، غنيّ مطلقاً ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥].

وعن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: (في صحف موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا عبادي إني لم أخلق لأستكثر بهم من قلة، ولا لآنس بهم من وحشة، ولا لأستعين بهم على شيء عجزت عنه، ولا لجر منفعة، ولا لدفع مضرة، ولو أن جميع خلقي من أهل السماوات والأرض اجتمعوا على طاعتي وعبادتي لا يفترون عن ذلك ليلاً ولا نهاراً ما زاد ذلك في ملكي شيئاً سبحاني وتعاليت عن ذلك)[١].

هذا الكون كلّه أخذ وجوده من الله، هذه الشمس المتفجّرة، المصنع الكبير الذي نواجهه يومياً، هذا المصنع الجبار الذي يستخرج يومياً ٣٥٠ مليون طن من الحريق ومِن الاشتعال ومن المادة الحرارية التي يصدّرها، مِن الذي يشغلها؟ هل رأيت مَن يشعل النار بلا مصدر؟! وإذا لم تكن هذه الشمس بحجمها قائمة بذاتها، فمَن أعطاها؟ ومن أعطى غيرها؟ وغيرها؟ حينما ترى الكون لا بدَّ أن تتواضع وتشعر بالانبهار والخشوع والغموض؛ فتأمّلُنا بالكون يُشعرنا بالخجل والتواضع!.

(١) علل الشرائع: ج١ ص١٣.

يقول ستيفن هو كينغ وهو يعلّق على ما بثّه المسبار هابل من صور حول السعة المذهلة للكون: «إنه كون لا نهاية لـه ولا حـدود له أيضاً، وهي فكرة يجب أن تدفع الإنسان الى التواضع!»[1].

وبتعبير اينشتاين: «إن الغموض هو أجمل عاطفـة يمكـن أن نشعر بها، وأي إنسان يستغرب هذه العاطفة أو لم يعد يتعجب ويقف منتشياً في رهبة فهو كالميت أو كالشمعة التي انطفأ لهيبهـا. والتـدين هو الشعور بأنه يوجـد وراء أي شـيء يمكـن الشـعور بـه لا تسـتطيع عقولنا استيعابه ولا يصلنا جماله وسناؤه ورفعته إلا بشكل غير مباشر. وبهذا المعنى فقط فأنا متدين ورع!»[2].

وذات مساء في بـرلين دُعـي اينشـتاين وزوجتـه إلـى حفـل عشاء عبّر فيه أحد الضيوف عن إيمانه بالتنجيم، اسـتخف اينشـتاين بالفكرة معتبراً إياها خرافة صِرفة، ثم تقـدّم ضـيف آخـر واسـتخف بمكانه الدين وأصر على أن الإيمان بالله يعتبر هو الآخر خرافة، وعند هـذا الحـد حـاول الضـيف أن يسـكته عـن طريـق الإشـارة إلـى أن اينشتاين يُكن في نفسه معتقدات دينية.

([1]) وثائقي بعنوان: رحلة هابل الكونية.

([2]) اينشتاين، حياته وعالمه، والتـر ايزاكسـون، ترجمـة: هاشـم أحمـد صـالح، ص ٤٣٣.

قال الضيف الشكّاك: هذا مستحيل، والتفت إلى اينشتاين ليسأله إن كان متديناً بالفعل، ردَّ اينشتاين عليه بهدوء قائلاً: نعم، يمكنك أن تقول هذا. حاول أن تخترق أسرار الطبيعة بوسائلنا المحدودة وسوف تجد أنه يوجد فوق نطاق كل القوانين والعلاقات التي ندركها شيء غامض لا يُدرك ولا يمكن تفسيره، وإن ديانتي هي تعظيم هذه القوة الموجودة فوق نطاق أي شيء يمكننا فهمه، وبهذا أكون متديناً بالفعل[١].

إذن، ولكي نعود لما بدأنا به نقول: إن الإنسان إذا فعل فعلاً ما فغايتهُ محددة بالاستكمال؛ لأنّه يريد بهذا الفعل أن يُكمّل نقصه، ولا يتصور هذا المعنى عن الله تعالى إذ هو بريء عن النقص ومنزّه عن الفقر.

وحينئذ: إذا كانت غاية الفعل الإنساني تشتمل على استكمال النقص، وكان الفعل الحكيم فعلاً مشتملاً على غاية، وإذا كانت غاية الفعل الإلهي تختلف عن الغايات المعهودة بيننا بأنها لم تكن تعبيراً عن نقص في الفاعل، فنسأل: هل غايات الأفعال الإلهية مشتملة على مصلحة أم لا؟ ألا يمكن أن نتصور الغاية الحكيمة

(١) السابق، ص ٤٢٩.

المشتملة على المصلحة دون أن تكون تلك المصلحة هي سد نقص في الفاعل الحكيم؟.

الجواب: نعم، يمكن أن نتصور ذلك إذا كانت المصلحة راجعة إلى الغير، إلى من يحتاج إلى الاستكمال بالفعل الحكيم، وليس بالضرورة أن هذا المحتاج هو الفاعل نفسه. إن الفعل الإلهي مؤكد أنه يشتمل على مصلحة؛ لأن الله حكيم منزه عن العبث. وهذه المصلحة راجعة للعباد؛ لأنّه غنيّ مطلقاً. هذا ما يتعلق بالمقدمة الثانية وتوضيحها.

المقدمة الثالثة:

رأينا أن المقدمة الثانية تتركز حول الفعل الإلهي، وسنتحدث الآن في هذه المقدمة عن إحكام صنع الله تعالى وتدبيره.

أحياناً الإنسان مع الواضحات، برغم أنه لا يحتاج إلى دليل، لكنّه يحتاج إلى تنبيه. الأمر يشبه أن الشمس طالعة فيأتيك شخص نهاراً ويقول: أثبت لي بأن الشمس طالعة. فطلوع الشمس نهاراً لا يحتاج إلى دليل، ومثل هذا الشخص يقال له: أنت تحتاج إلى تنبيه بأن الشمس طالعة، بمجرد أن ترفع عينك ترى الشمس.

ومن هذا القبيل المقدمـة الثالثـة؛ إنهـا مقدمـة واضـحة ولا تحتاج إلى دليل فهـي تنبيـه لجـذب الانتبـاه. تتعلـق المقدمـة هـذه بالحكمة الإلهية، أي: في أن خالق الكون وخالق الخلق حكيمٌ.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغـة: «وأرانـا مِـن ملكوت قدرته وعجائب ما نطقت به آثـار حكمتـه»؛ فـالكون كلّـه آثار لحكمة الله عزّ وجل، فترى حكمتـه فـي فعلـه المـتقن ونظامـه الدقيق المحكم بما يبهرك ويجعلك لا تملـك سـوى التعجـب، ثـم يقول الإمـام عليه السلام: «واعتـراف الحاجـة مـن الخلـق الـى أن يقيمهـا بمساك قوّته»؛ فالخلائق جميعها تنادي بحقيقتها وكنهها وكينونتهـا بالاحتياج والافتقار إليه سبحانه، فهو الـذي يهبهـا الحيـاة والوجـود ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ [الرعد : ٣٣]، والمـراد أنـه تعـالى القائم بحفظ الشيء وتربيته وحفظه ومراقبتـه، فهـو قـائم علـى كـل شيء.

ثم يقول الإمام عليه السلام: «ما دلَّنا باضطرار قيام الحجّة له علـى معرفته»؛ فدلنا بآثار حكمته واعتراف الخلائق أمام عـزه وقيمومتـه، أننا لا نملك لأنفسنا شيئاً، وهذه الآثار والحكمـة حجـة علينـا لأنهـا دليل عظمته وحكمته وبها نعرفه ونطيع أمره.

ويقول الإمام عليه السلام: «فظهرت البدائع التي أحدثتها آثار صنعته»؛ إذ أن هذا الكون، وهذه المخلوقات، الأشياء من أصغرها إلى أكبرها، ترى النحل في دقّتها، ترى الفيل، ترى الجبل، ترى النبات هذا الكائن الحي المشتمل على مضخة لرفع المياه من الجذور الى أعلى الأغصان تبلغ في بعضها قدرة ٢٠ حصاناً، مضخة المياه الميكانيكية المصنوعة من قبل الإنسان ليس فيها هكذا قدرة عادة، بينما هذا النبات حينما يمتص الماء ويرفعه إلى أعلى الشجرة فإن فيه قدرة ما يعادل ٢٠ حصاناً، والحصان يعني وحدة قياس كانت تستخدم سابقاً من لدن المزارعين عندما كانوا يستخدمون الدواب للحرث والحمل، ويعرف المطلع معنى أن تكون مضخة بهذا الحجم الصغير وبنفس الوقت أن تعطي هذه القدرة!.

وقال عليه السلام: «وظهرت في البدائع التي أحدثتها آثار صنعته وأعلامُ حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه، وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة»[1].

فكل شيء وإن كان صامتاً لا لسان له كالنبات، إلا أن لسان وجوده وحقيقته تنادي بفقره واحتياجه، فصمته غلبه لسان

(1) نهج البلاغة: الخطبة: ٩١.

عجائبه الناطق بقدرته وخلاّقيته وإبداعه سبحانه وتعالى.

ولكي أُلفت نظركم إلى حالة ظرفية معينة للتنبيه وللاستئناس، وأيضاً للخشوع: أحياناً الإنسان عندما يرى مقطعاً تصويرياً قصيراً عن سعة الكون وعن الكواكب وعن دقّتها وانتظامها.. ففي اليوم الذي يرى فيه المقطع، أكاد أجزم بأن صلاته ستختلف عنها في الأيام الأخرى، لا بدَّ سيشعر بخشوع وتهيب إذ يرى هذه التجليات العظيمة لخالق هذا الكون العظيم. فالذي خلق الكون وأراك هذا العجب هو من تقف بين يديه لتصلّي أمامه!.

أحياناً بعض الأمثلة فعلاً تخشّع الإنسان، ونحن نعدّها من الطموحات الأساسية في طلب العلم: أن يخشِّع الإنسان. وهي مهمّة جوهرية، إذ لا يجب عليه أن يتعلّم علوماً لا يستفيد منها، أو أن يمر على العلوم بطريقة أن لا يستفيد منها؛ فهذه العلوم، مع كونها مفيدة للمقدّمة العلمية، فهي أيضاً مثيرة للخشوع.

مجرّتنا درب التبانة أو الطريق اللبني وسميت بذلك لأن جزءاً منها يُرى في الليالي الصافية كطريق أبيض من اللبن أو التبن المتناثر على شكل طريق بسبب النور الأبيض الخافت الممتد في السماء والذي هو عبارة عن ملايين النجوم المضيئة والتي تبدو رغم

أبعادها الشاسعة كأنها متراصة متجاورة وبشكل طريق يُشق في السماء.

هذه المجرة وحدها فيها ما بين ٢٠٠-٤٠٠ مليار نجم كالشمس، هذه مليارات النجوم تدور حولها مليارات الكواكب. كما الشمس التي تدور حولها مجموعتنا الشمسية بما فيها الأرض، وكل نجم في هذه المجرة منتظم بدقّة متناهية، والكواكب تدور حوله ضمن مسارات محددة يمكن التنبؤ بحركتها لمئات السنين لأن حركتها دقيقة للغاية، كل واحدة صنعها دقيق، وكل واحدة تؤدّي دورها بدقّة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠].

منظومتنا الشمسية التي تتكوّن من الشمس باعتبارها المركز، ومن كواكب تدور حول الشمس - تسعة كواكب- وما يقرب من ١٥٠ قمراً. فالأقمار تسبح حول الكواكب، والكواكب تسبح حول الشمس، ومن ثمّ فالشموس في المجرّة كلها تسبح في فلك درب التبانة، ومجرة درب التبانة ومعها بقية المجرات العملاقة كذلك تدور وتسبح في الفضاء مع بقية المجرات! وبالتأكيد فإننا لا نعلم إلى أين نحن ذاهبون؟! ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس : ٣٨].

كل من وقف أمام هذا الكون شعر بالخجل، إلا بعض المراهقين علمياً لا يخجلون أو لا يخشون، وبتعبير اينشتاين: «الدين هو الذي أذكى الاعتقاد في إمكان أن تكون التنظيمات التي تنطبق على دنيا الوجود معقولات أي يستطيع العقل إدراكها ولا أستطيع أن أتصوّر عالماً أصيلاً لا يؤمن إيماناً عميقاً بهذه العقيدة. إن الموقف كلّه أن العلم بدون الدين أعرج عاجز والدين بدون العلم أعمى يتخبّط في الظلام»[١].

وأين تضع عينك إنما تضعها على الفواصل الدقيقة والحركة المنتظمة التي فيها أرقام خيالية، الأرقام الدقيقة بين الكواكب، الأرقام المرتبطة بقانون الجاذبية، قوانين الكون العجيبة.

بينما ترى البعض يصف المقابلة بين هذين الأمرين المنسجمين أحسن ما يكون الانسجام؛ يصفه بمقولة العلم قبال الدين!.

([١]) من مقال له ألقي في تنسوتون في معهد اللاهوت في ١٩ مايو سنة ١٩٣٩ ونشر في حصاد أيامي الأخيرة في بنيويورك المكتبة الفلسفية سنة ١٩٥٠. وكذلك (العلم والفلسفة والدين) ملخص نشره مؤتمر العلم والفلسفة والدين وعلاقتهما مع المنهج الديمرقراطي للحياة بنيويورك سنة ١٩٤١. ونشرت لاحقاً في كتابه أفكار وآراء.

ينبغي أن يوضع كل شيء في مكانه الصحيح، ولذلك نسأل ما هو العلم؟ هل معناه اختراع شيء غير موجود أم اكتشاف شيء موجود؟ الجاذبية هل أنها لم تكن موجودة ومن ثم اُخترعت بالقانون، أم هي موجودة بالفعل وإنما كان القانون الرياضي مقنناً ومعبراً لسلوكها العياني؟ الجواب هو الثاني، أي أن العلم هو وصف للظواهر الموجودة أصلاً، فيقوم بتقديمهما بصيغة رياضية أو بشكل قانون بسيط. فالعلم بهذا عبارة عن توصيف لظواهر موجودة، فإذا مدحت العلم فلم لا تمدح صاحب هذه الظواهر الموجودة التي يقف العلم عليها؟!.

الوضع شبيه بأن شخصاً يقول: هذه شهادة دراسية جميلة؛ كل درجاتها امتياز، فيقال له: لماذا لا تمدح صاحبها الذي أتى بهذه الدرجات؟!.

وخلاصة المقدمة الثانية والثالثة: أن خالق هذا الكون حكيم وحكمته لا حدود في دقّتها، وضع الأمور بالإحكام التام حيث مواضعها الدقيقة، كما أنه عادلٌ حكم لا يجور سبحانه تعالى، منزّه عن العبث واللهو.

وننتقل من هذه المقدمات الى حيث النتيجة التي يبدو أنها اتضحت جلياً، فنقول أن الله خلق الإنسان بحكمة تامة تقود الى

غاية متينة، وأنه تدلنا حكمته وبدائع صنعه وعجائب خلقه على أن من وراء الإنسان غاية رفيعة، وحكمة الخالق في صنعه عينها في الغاية من وراء خلقه.

الفصل الأول

الأدلة النقلية

الاستدلال بالآيات الكريمة:

سنتطرق الآن إلى عدد من الآيات القرآنية مع شيء من التفسير، قبل أن نعرج إلى التفسيرات العقلية والفلسفية حول الغاية من الحياة أو الخلق.

ولكن علينا التنبيه أولاً أن السؤال «لماذا خلقنا الله؟» لاحق لإثبات وجود الله تعالى، ولهذا فهو سؤال يترتب على الإيمان بوجود الله تعالى أولاً.

فاستنادنا الى الدليل النقلي هو من هذا القبيل حيث أن الإيمان بالله تعالى وإثبات حكمته ورسله وكتبه يسبق معرفة الغاية من الخلق؛ فيصبح من المقبول منهجياً أن نبحث عن الدليل النقلي في مثل هذه المسائل؛ لأننا نسأل لماذا خلقنا الله بعدما نؤمن بتوحيده، فيكون النقل في ضمن سياقه الصحيح وهو إثبات الغاية للمؤمن الذي يعتبر النقل حجة لديه. وسنتطرق الى عدّة آيات في المقام:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥].

لا نعدم أن يأتي مسلم مؤمن بالله ورسوله، يحضر المساجد ويقيم الشعائر، ومع ذلك يسأل مستفهماً أو كالمستنكر: (لماذا خلقنا الله؟ ولأي شيء خلقنا الله؟ وهل خلقنا الله لأمر ما؟) فهل يمكن الإجابة عن هذا السؤال بهذه الآية أم لا؟

بلا ريب إنها كافية في الجواب بغض النظر عن الجواب العقلي؛ فكما قلنا: إن الله حكيم منزّه، له حكمة في تشريعه وله حكمة في كلامه، إذا قال أنه يوجد حكمة من هذا الكون، يكفي هذا بحسبه؛ فطالما أن من الثابت عندنا أن خالق هذا الكون -هو الخالق الحكيم كما نرى من تجلي هذه الحكمة في مخلوقاته- يعني: طالما أنه يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، أي إنه لم تخلقون للعبث وإنكم إلينا ترجعون، فيكون في هذا الكفاية حينئذ؛ إنها إجابة مباشرة لكل من يؤمن بالقرآن ويدرك أنه كلام الله تعالى.

ويكفي لمعرفة الحكمة من الخلق هو النظر الى عظمة الخلق وبديع الصنع والجمال والاتقان والانتظام والخلاقية والهيبة والجلال في كل ما ننظر حولنا من خلقه، فجماله وجلاله واتقانه بنفسه يقطع السؤال عن العبث، فالذي يرى كل هذا الصنع وكل هذا الخلق وانتظامه يقطع بأنه خلفه حكمة متناهية لا نظير لها.

فالآيـة تكـون حينئـذ، علـى هـذا المعنـى الجديـد، هكـذا: أفحسبتم أنما خلقتم عبثاً مع كل هذا الصنع والخلق الحكيم؟!.

إن الآية من باب إثبات الشيء بنفي نقيضه، كما لو أردت أن تثبت النهار بأن تأتي أولاً لتنفـي الليـل فيثبـت حينئـذ النهـار. إن الآية الكريمة بنفيها للعبث تثبـت الغايـة وأن الإنسـان خلـق لهـدف سام جليل.

والمهم الآن أن نتأمل في الآيات السابقة على هـذه الآيـة، الآيات من ١٠٢ سورة المؤمنون، لاحظ الآيات عمّا يسـتقبلهم مـن الموت، ثم البرزخ، ثم البعث، ثم الحساب، ثم الجزاء..

تخاطب الآيات بني آدم بصريح المقال، هل تظنون أنكـم تحيون وتموتون من غير هدف ولا غاية في خلقكم؟!.

لا مناص من الحكم بأن بعـض أحبتنـا الشـباب هـم أدعـى للشـفقة والأسـف علـى مـا يتنكبـون مـن أحكـام بـالرغم مـن هـذا الخطاب الرباني الصريح!، إنهم، أي البعض، يقولـون: أيـن الله عـزّ وجلّ؟! نحن نريد حياة غير دينية، أو نريد حياة مادية!.

يوماً ما أتاني أحد الشباب وقال: (أنا لا أريد دين، أريد أن أعيش كما يحلو لي!)، ليس في وسعي أن ألومه يومئذ، إنـه يعـاني من ضنك المعيشة، محروم من اللقمة، وكـم مـن مقصّـر فـي حقّـه!

ولكن ما أشقى أن يختلق الإنسان المسوغات لنبذ دينه وإن كانت عسر المعيشة ومشقة الحياة!، فقلت له آنذاك: إذا صارت لك فرصة فزر المقبرة!.

أنا أتوقع أن الذين يعيشون الحياة المادية والصخب والضجيج والتمرّد لا دواء لهم إلا المقبرة، عندما يقف الإنسان المادي على مصيره، ذلك المصير المحتوم الذي لا مناص منه، سيصحو من السكرة، وتسترعيه الحقيقة، وتأخذه الشجون!، نحن حبيسون في هذه الحفرة، فلا تغتر أيها الإنسان، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

كثيراً ما يكون الداء في أن نواجه التمرد والعنفوان والغرور بأن نقف على النهاية!، وترى هذه الناس، لو نظرت في وجوه هؤلاء الشباب الذين هم أجمل وأوفر رفاهية وأكثر اقتداراً: «قد أفنتهم أيدي الزمان واحتوت عليهم الأفاعي والديدان، أفنتهم الدنيا فكأنّهم لا كانوا لها أهلاً ولا سكّاناً، وقد أكل التراب لحومهم، وأزال محاسنهم، وبدّد أوصالهم وشمائلهم!»[١].

(١) من خطبة الإمام زين العابدين عليه السلام في دمشق، انظر: بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، جعفر عباس الحائري: ص ٣٠.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص : ٧٩].

فمثل (الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) لا غاية لهم سواها ولا يعيشون غير الحياة البهيمية، فجعل هؤلاء السعادة فيما أوتي قارون من المال والجاه من دون قيد أو شرط؛ فحقيقة مؤكدة إن كان ثمة رجاء، وكان ثمة دواء يرجى لهؤلاء الذين يقولون بمقولة: (العبث)، ولا مطمح لهم من الدنيا إلا العبث، ويصرفون الجهود الغالية في محاولات العبث بمنظوماتهم الفكرية ومنظومات الآخرين، وصرف الأوقات والطاقات في مناصبة الدين، فبصراحة هؤلاء دواؤهم البرزخ والقيامة، أي أن تذكّرهم -لمن تأمل الشفاء منه- بالموت. ليس هذا من باب تنغيص العيش عليهم وتكدير الصفو، بل من باب مواجهة الحقيقة بدل طمس الرؤوس في الرمال والتغافل عنها؛ **فالجواب الأول** لمثل هذه الحالات أن تذكره بالبرزخ.

ولذا قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ. قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا

تُكَلِّمُونِ. إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِين. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ. قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون :١٠٥- ١١٥].

وأما **الجواب الثاني** فنستفيده من الآيات الكريمة في سورة المؤمنون، حيث قال تعالى: قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون :١١٥- ١١٦]. فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) هذا جواب نقضي على هؤلاء، وهو نقضٍ بالتنزيه.

فائدتان:

ونلفت النظر الى فائدتين هنا:

الفائدة الأولى: تظهر بجلاء من هذه الكلمات (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)؛ فما يصدره الله تعالى كلُّه حقٌ، غنيٌ عن العبث

واللهو. فتبين خطل القائل بأن الخلق عبث؛ كيف لا والآية تنص على أن الله تعالى خلق الخلق بحقّ، وما يصدر منه كلُّه إن هو إلا حق لا عبث فيه.

ومن هذا الكلام نفهم: طالما أن الله تعالى (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وقد تنزه عن العبث وكان كل ما منه حق محض، يتجلى معنى (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) من هذا الكلام أيضاً؛ فعلى تفسير أن العرش هو الذي منه تصدر القرارات الإلهية وفقاً لما اقتضته حكمته، وكيف أن رزقكم ينزل إليكم من السماء، فالتدابير والحكم والملائكة التي تأخذ أوامرها تنطلق من العرش، كالمرسوم العرشي يخرج من هناك، فإذن لا إله سواه في العرش، يفهم منه أنه سبحانه يصدر القرارات من العرش، بمعنى أن الله عزّ وجل يبعث القرارات من خلاله، ويدبّر الملائكة من خلاله. فإذن واضح لحدّ الآن أنه هو الذي يصدر عنه الحكم من العرش وهو الحقّ.

الفائدة الثانية: وهي بديهية تتجلى بالسؤال التالي والجواب عنه؛ ذلك أن هل لمالك الملك أن يحكم في ملكه بما يريد ويشاء أو لا؟ ومن ثم فإن ملكية الله عزّ وجل اعتبارية أم حقيقية؟.

نحن حينما نقف بين يدي الله عزّ وجل ونتلو سورة الفاتحة

مثلاً - هذه السورة المظلومة التي، مع الأسف، لم نتفرس بنكاتها، ترى الإنسان حينما يتفرّس النكات كم يخشع أمام الله عزّ وجل- فنتلو قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤]، ما معنى الملكية هنا؟ أهي الملكية لله عزّ وجل والمالكية لله عز وجل الحقيقية أم الاعتبارية؟ أنا الآن أمتلك الهاتف مثلاً، هذه المالكية حقيقية أم اعتبارية، بمعنى ما هي حقيقة دورك في هذا التملك، وما هي العلقة بينك وبين المملوك لك؟ ليست الملكية هنا إلا حكماً اعتبارياً جارياً بمقتضى العرف؛ فالعرف اعتبر لورقة ما مالية معينة، جعل لها قيمة، قدّم جهداً بإزائها، حيث يعطوك ورقة نقدية من هذا القبيل، وهذه الورقة النقدية تعطيها إلى بائع الهاتف يعطيك هاتفاً بدلاً عنها.

علاقات القيمة والملك هنا علاقات اعتبارية، هذا يتبع هذا، أي أن مالكيتنا للأشياء مالكية اعتبارية، بينما الله عزّ وجل مالكيته للأشياء مالكية حقيقية؛ لأنه خالقها ومانحها قيمتها الوجودية الحقيقية، وبدونه لا قيمة لها ولا وجود بتاتاً.

فالفرق واضح حينما يقول سبحانه: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)؛ فالملك يحكم بما يشاء، من بدء وعود وموت ورزق، فهو المالك المطلق وله وحده أن يحكم بما يشاء.

هذه الفائدة التي نثبتها بوجه قول المستنكِر: لماذا خلقنا الله عز وجل؟ فنقول له بمقتضى الآية: إن الله عزّ وجل المالك؛ فله أن يتصرف في ملكه بما يشاء، من رزقكم، بدأكم، عودكم.. لا مجال للاعتراض عليه بكل هذا وغيره، لأنه يكون اعتراضاً على مالك لتصرفه في ملكه.

يقول تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٨]، فلنسأل هنا: ما معنى إصابة الحق؟ المفهوم من إصابة الفعل للحق هو وجود شيء خارجي اسمه حق نقايسه به، فنقول: هذا الفعل يطابق هذا الشيء الذي أسميناه حق، أو أنه لا يطابقه.

فمن يدعي أن الشمس طالعة مثلاً، متى تكون دعواه مطابقة للحق؟ طبعاً إذا كانت الشمس طالعة آنذاك فعلاً، فيكون المدعى مطابقاً للواقع الفعلي.

ومن يحصل على درجة كاملة في الامتحان لم يكن ليستحقها إلا بالمقايسة مع معيار للدرجة الكاملة، ألا وهو الإجابة الصحيحة المثالية.

وبناء عليه عندما تقول الآية: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣] فنسأل لماذا لا يُسأل سبحانه؟.

الجواب: هو لأننا إذا أردنا أن نقايس فعله فبمـاذا نقايسـه؟ أي شيء خارجي نجعله معياراً للحق لنقارن فعل الله به سـبحانه؟ لا نعـرف الحـق إلا بـالله سـبحانه وإنمـا بـه تكسـب الأمـور والأفعـال اشتمالها على الحـق، فكيـف يصـح أن نـوازن الفعـل الـذي يكـون محض الحق بأمر ما غيره لنعرف مدى ما فيه من حق!.

الله عزّ وجل لا يسأل عن فعله؛ لأن غيره عنـدما يُسـأل (لـم فعلت كذا)، فإن ذلك يكون بهدف أن نطبّق فعله على الحق وعلى الخارج، أمّا هو سبحانه وتعالى فلا مورد للسؤال عن فعلـه؛ إذ كـل الخارج الذي تريد أن تقيس به إنما هو خلقه وملكـه! ففعلـه نفـس الحق والتحقق الخارجي.

يقول عز وجل: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة : ١٤٧] فإذا كان كل الحق من الله عزّ وجل وملك لـه فأنـت أي حق تطابقه معه سبحانه؟! فالخارج منه وما تريـد أن تطابقـه مـع الخارج منه أيضاً.

فتحصل أن ملكه يقتضي كون كل الحق منه ولا يسأل عن فعله وخلقه للخلق من جهة أن كل ما تقارنه وتطابقه لمعرفـة كـون فعله حق هو من عنده وخلقه وملكه، فتنتفي المطابقة ولا يمكن أن يعترض عليه معترض!، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ﴾ [آل عمران : ١٩١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام : ٧٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم : ١٩].

الآية الثانية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦]، وفيها إشارات:

إذ لم يقُل سبحانه: (وما خلقتُ الجن والإنس لكي أُعبد)، ولم يقل (لأكون معبوداً لهم)، ما الغاية المستفادة من الآية من خلق الجن والإنس إذن؟ الجواب: ليعبدون، أي هم يعبدون؛ ليكونوا هم من يستفيد من خلقهم وليس الخالق جل شأنه؛ فالله سبحانه خلقهم رحمة منه بهم ليستكملوا أنفسهم بعبادته وهو ما مرّ من أن الأفعال الإلهية فيها غاية ترجع الى الخلق ليستكملوا نقصهم.

وفي الحديث القدسي: (يا بن آدم، لم أخلقك لأربح عليك، إنما خلقتك لتربح علي، فاتخذني بدلاً من كل شيء فإني

ناصر لك من كل شيء)[1].

ثم نسأل هنا إلى أين تقود العبادة؟ العبادة التي هي ركوع وسجودٌ وصلاةٌ وأعمالٌ جوارحية.. هذه كلّها إلى أين تؤدي؟ كلها تقود إلى أن يصل العبد مقام الوقوف بين يدي ربّه، يقف بين يدي الله عزّ وجل ويشعر بذلّة العبودية أمامه، وهي حتماً غاية العز طالما أنها للمعبود الحق.

وبعبارة أخرى: الأعمال الجوارحية والأعمال العبادية تقود إلى العبودية، فلكي يشعر الإنسان بكونه عبداً خالصاً لله عزّ وجل عليه أن يتعبد بالجوارح.

وعليه، كلمة (يعبدون) مع كونها تشير إلى الأعمال العبادية من ركوع وسجود وصلاةٍ وزكاةٍ وخُمس.. إلخ، ولكنها تقود العبد لكي يصل إلى ساحة الله تعالى، أي لكي تأخذ الجوارح بالعبد نحو المثول بين يدي الله تعالى بذلة العبودية وفقر المملوكية مقابل الغنى المطلق والعز المطلق.

فالنقطة الأولى إذن: هذه العبادة تقودنا إلى العبودية، إلى أن نقف بين يدي الله عز وجل بالفقر المحض أمام الغنى المحض،

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ٢٠ ص ٣١٩.

نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان : ٧٧]. فـ(دُعَاؤُكُمْ) وهي (أعمالكم العبادية)؛ فيصير المعنى: ما يعبأ بكم ربّي لولا عبادتكم؛ فالعبد حتى يعبأ به الله عزّ وجل لا بدّ له أن يأتي ويتقرّب بالأعمال العبادية ويقف بين يديه، ولكي يقف بالذل المطلق عليه أن يعرف الغني المطلق.

إن إعمال الجوارح لله تعالى يقود للمعرفة؛ فالمثول بين يدي الله واستشعار الفقر المحض بين يدي الغنى المحض والشعور بالمملوكية، كل هذه هي المعرفة بالنتيجة؛ فالعبادة تقود إلى المعرفة، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزهها عن كل ما يبعدها»[1]. أي أعتقها من ربقة غير الله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩]، ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات : ٨٤].

وهكذا يتحصل من مفاد الآية (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) معنى (إلا ليعرفون)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «خَرَجَ الحُسَينُ بنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَلى أصحابِهِ، فَقالَ: أيُّهَا النّاسُ! إنَّ اللهَ جَلَّ

(١) غرر الحكم : ١٧٨٨.

ذِكرُهُ ما خَلَقَ العِبادَ إلاّ لِيَعرِفوهُ، فَإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ، فَإذا عَبَدوهُ استَغنَوا بِعِبادَتِهِ عَن عِبادَةِ مَن سِواهُ»[1].

ثمّ إنّنا نستفيد من قوله تعالى: (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، وقوله عليه السلام: (ما خَلَقَ العِبادَ إلاّ لِيَعرِفوهُ) أن أول الخلق لا بدّ أن يحقق الغرض الداعي للخلق وهو المعرفة، فالمعرفة هي السابقة على الخلق وأول الخلق لا بدّ أن يكون هو العارف به تعالى بما يحقق الهدف الإلهي (المعرفة).

ومن هذا نفهم الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله قال: (قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أول شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير)[2].

فالمعرفة هدف الخلق وغاية الخلق، والعارف المتمثل بالمعرفة أول الخلق ومنه اُشتق كل خير؛ ولذا تجد كل المخلوقات من السماء والكون والشجر والطير والجبل وغيرها، كلها تنظر اليها وكأنها تثير الارتياح فيك وكأن لها لغة يُخاطب الناس بها وتثير فيهم الراحة والطمأنينة، ولو كنت غريباً عنها وهي غريبة عنك، ولو

(1) علل الشرائع: ج١ ص٩.

(٢) بحار الأنوار: ج١٥ ص٢٤.

كنـت لا تملـك مـا يشـترك بينـك وبينهـا لمـا كانـت هـذه الراحـة والطمأنينة، وانما ذلك لأن اشتقاق كل الخيرات من نور واحد.

ولكي نعود الى أصل ما طرحنـاه فنقـول: إن العبـد يعبـد ليصل إلى الغرض الأقصى للخلقة، وهي أن ينقطع عن نفسه بحيث يصل الى الفقر المحض، وهكذا تكون المراتب: العبادة تقـود إلـى العبودية، وهي تترقّى به الى المعرفة، بعد هذا يوجد سهم أخير؛ إنه النتيجة؛ ذلك أن الإنسان حينما يصير فقراً محضاً أمام الله عزّ وجل، يفيض عليه بركات السماء والأرض ويكون هو الإنسان الوليّ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعـراف : ٩٦].

وفي الحديث القدسي: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافـل والعبادات حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها)[١].

وفي الحديث القدسي أيضاً: (عبـدي أطعنـي تكـن مثلـي، تقول للشيء: كن، فيكون)[١]. فإن صح التعبير: بواسطة هذا الطريق

(١) عوالي اللئالي، ابن ابي جمهور الاحسائي: ج٤ ص١٠٣.

نصل إلى الإنسان (السوبر)؛ الذي تقوده التقوى ويؤسس للنمـوذج الحضاري العتيد، بلا أن تتحول العلوم فيه الى آلة للأسلحة النووية والقنابل الهيدروجينية، العلـم والمعرفـة سـتكون محاطـة بجـو مـن الضمير والقـيم والخيـر مـا يؤهلهـا الـى أن تخـرج بركـات الأرض وتسارع السير نحو تأسـيس العـدل فـي الحكـم والتنظيـر والتوزيـع للثروات، لتستنزل رحمة السماء!.

هذا الذي يقول لسليمان عليه السلام: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل : ٤٠]، فعرش بلقيس في اليمن وهو فـي فلسـطين، إنـه يقـول لسـليمان: الآن آتيـك بعـرش بلقـيس مِـن اليمـن!.

التقـدم العلمـي - بعكـس مـا يصـوره بعـض المـاديين والجدليين - صار يقـرب المفـاهيم والمـدعيات الدينيـة أكثـر إلـى أذهاننا. فقد يعتـرض معتـرض: هـل يمكـن لأحـد أن ينقـل عـرش بلقيس مـن هنـاك إلـى هنـا بلحظـة؟ فنقـول لـه: مـن المعقـول الآن وبحسب النتائج والوعود الممكنة في طموحات الفيزيـاء الحديثـة،

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي: ج ١٠٢ ص ١٦٥.

تحت عنوان (النقل الآني)، وهي خاصة النقل بدون (دلتـــا تـــي)، يعنـي بـدون المتغيّـر الزمنـي[1]، حيـث نجـح العلـم الآن فـي نقـل الفوتونات وجسيمــات الضــوء وبعض الذرات، وتكمن الصعوبة لـديهم فـي نقـل جزيئـات الغـاز أو السـائل أو الصـلب. وطالمـا أن المسألة ممكنة علمياً، بل إن لها تطبيقاً عملياً وإن على صعيد ضـيق الى الآن، فلا مجال لمثل هذه الإشكالات إذن.

فقـد قادنـا التأمـل فـي الآيـة الكريمـة (وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) للانتقال من العبادة إلى العبودية ومن ثـمّ الـى المعرفة، وفي النهاية يتحقق الإنسان الولي، إلى أن يكـون العـارف ولياً لله عزّ وجل. فهل بعد هذا يوجـد مـن يســأل عــن الغايــة مــن الخلق؟!.

وعن جعفر بـن محمـد بـن عمـارة عـن أبيـه قـال: (سـألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له: لم خلق الله الخلـق؟ فقـال: ان الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقـه عبثـاً ولـم يتـركهم سـدى بـل خلقهم لإظهار قدرته وليكلفهم طاعته فيستوجبوا بـذلك رضـوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعـة ولا ليدفـع بهـم مضــرة بـل خلقهـم

(١) انظر: فيزياء المستحيل، ميشيو كاكو: ص٧٤.

لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد)[١].

وفي جواب سؤال لمَ خَلقَ الله الخلق؟ قال الإمام الصادق: (لأنّ الله سبحانه كان محسناً بما لم يزل فيما لم يزل، إلى ما لم يزل فأراد سبحانه وتعالى أن يفوّض إحسانه إلى خلقه وكان غنيّاً عنهم، لم يخلقهم لجرّ منفعة، ولا لدفع مضّرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم وأرسل إليهم الرسل حتّى يفصلوا بين الحق والباطل، فمن أحسن كافأهُ بالجنة، ومن عصى كافأه بالنار)[٢].

وقال رجل للإمام الصادق: (يا أبا عبد الله إنّا خلقنا للعجب؟ قال: وما ذاك لله أنت، قال: خلقنا للفناء؟ فقال الإمام عليه السلام: مه يا بن أخ خلقنا للبقاء وكيف تفنى جنّة لا تبيد ونار لا تخمد، ولكن قل: إنّما نتحرك من دار إلى دار)[٣].

ويطل علينا القرآن الكريم الذي هو كتاب الهداية للبشر وصممت آياته الكريمات من أجل هذه الغاية السامية، فقد نجد من يحدثنا عن الكيمياء أو الفيزياء أو تقنيات الصواريخ أو النانو وغيرها، ولكن لن تجد غير الدين والقرآن الكريم من يؤسس

---

(١) علل الشرائع: ج١ ص٩.

(٢) تفسير الثعلبي: ج٧ ص٦٠.

(٣) السابق: ج١ ص١١.

للبنى الأخلاقية والضميرية لهذه العلوم، فالتقنية إن لم يكن لها أُسس أخلاقية ستكون كالغول المتمرد الذي يتطاير الشر من بين يديه ليردينا الهاوية، والبشرية إن لم يكن لهم أساس لمعرفة الحق من الباطل ولإرشادها الى الخير ستسير الى الهاوية حينئذ.

يقول تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٤]، فترى أن الآية تدل على أن الدنيا وغرورها ولهوها غير الآخرة وباطنها والتي هي الحياة الحقيقية، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم : ٢٩]، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم : ٤٢]، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت : ٢١]، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام : ٣١]، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ١١٥].

من المناسب هنا أن نرجع إلى الآيات الكريمات (٣٢ وما بعدها من سورة الكهف): ﴿ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا... وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾، انظر الى الجهل وفقدان المعرفة وظلم النفس ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ترجيح للفلسفة العبثية –إن صح التعبير– في وصف الواقع، ﴿وَلَئِن

رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾، مؤمن بالله، يعترف بوجوده سبحانه بل ينسب نفسه بالمربوبية إليه ﴿ربي﴾، لكن يظن الخلق نوعاً من العبث، ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً... فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ ... وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾. ترى الإنسان حينما يخسر كُل شيء، وجنته خاوية، وكفاه فارغتان، هنا لحظة أفلس ولحظة رجع الى ربه واستشعر الفقر المحض، قال: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤]، أي أنه من حين تلك الساعة حينما اعترف بالفقر والضعف، هناك نجد الولاية منذ لحظة افتقاره، كلها من الممكن أن تأتي في لحظة صدق واحدة ورحمة الله واسعة!.

فالآيات تصرح ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات : ٥٧] ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق : ٢٩]، وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد

الله عليه السلام عن قول الله عز وجل (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، قال: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة»[1].

فبعد إن صار الهدف من الخلق أن نصل بالإنسان إلى إنسانيته الحقيقة من خلال العبادة الى العبودية ومن ثم الى المعرفة والولاية حيث تظهر كمالات الإنسان وقوته والقدرات التي يمنحها الله تعالى له، في تلك الساعة يكون إنساناً حقاً.

وبذلك نعرف معنى أنّ العاصين والخارجين على شريعة الله تعالى يصفهم القرآن بأنهم كالأنعام: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤٤]؛ لأن الإنسان حينما يختار الأهداف الإلهية يكون إنساناً ربانياً، إنساناً عاملاً وفقاً للفطرة الإنسانية التي أودعاها الله فيه حين خلقه، وبهذا فقط يكون انساناً حقيقةً وفعلاً.

أما الإنسان ككيان مادي لا يتمتع بالروح أو الأخلاق ولا يعير لضميره أي اهتمام ويفقد أهدافه التي يريدها الله تعالى له، فهو فاقد لإنسانيته في الحقيقة.

وفي حديث آخر أن النبي داود عليه السلام قال: (يا رب لماذا

(1) علل الشرائع: ج١ ص١٣.

خلقت الخلق؟ فقال تعالى: لما هم عليه)[(١)].

أي أنه خلقهم لتظهير قابلياتهم المودعة فيهم وانبثاق جمال الفطرة على تصرفاتهم، بحيث تكون الغاية الإلهية من خلقهم والتي يسرون إليها من صميم ما تقتضيه فطرتهم، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦].

خلاصة سريعة:

إذن، مرَّ بنا الكلام حول الغاية من الخلق أو لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى، وتبيّن لنا مجموعة من النقاط، نحاول الآن تلخيصها بشكل سريع.

- تضمن كلامنا أن الأفعال الإلهية غيرُ متصفة باللغو والعبث، وانها حكيمة مطلقاً، وأن اللهو واللعب والباطل ممنوع على الله عزّ وجل، مستحيل، لا يفرض في حقه.
- وتضمن أيضاً أن أفعاله تعالى متصفة بكونها غائية، لكن الغاية فيها راجعة إلى العباد لا إلى لله سبحانه وتعالى.
- وممّا مر أيضاً: أن الخلق إنما خلقوا من أجل أن يعرفوه

(١) عوالي اللئالئ، ابن أبي جمهور الأحسائي: ج ٤ ص ١١٧.

جل وعلا؛ فالغاية من الخلق هي المعرفـة. فـالخلق إذن من أجل أن يعرفوا الحق ويكونوا اناساً إلهيين.

حديث خلقت الخلق لكي اُعرف:

في الحديث القدسي المنسوب: (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اُعرف فخلقت الخلق لكي اُعرف)[١].

فقوله تعالى: (فأحببت أن اُعرف) ينبّه إلى أن الله عزّ وجـل خالق الإنسان والنظام الكوني هـو المالـك ولـه أن يتصـرف بملكـه كيفما يشاء وحيثما يشاء، فإرادته في ملكه مطلقة، فحبه تعالى لذاته يتبعه حبه لمخلوقاتـه وآثـاره التـي هـي فـرع إرادتـه وملكـه، فغنـاه المطلق وكماله المطلق وذاته الفياضة هي التـي أرادت وأحبـت أن تفيض بغناها، وحبه وإرادته للشيء كن فيكون، فخلق الخلق الذي هو أثر لقدرته ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل : ٤٠].

وقوله: «لكي اُعرف» يتبيّن مما مرَّ من الكلام ونستطيع أن نقول أن هــذه المعرفــة تضاهــي المعرفــة المستفادة مـن قولـه:

---

(١) اُنظر بحار الأنوار: ج٨٤ ص١٩٩.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، أي (إلا ليعرفون) والتي تبينت مما مضى.

فتحصّل أن بين الآية الكريمة وبين الحديث وشيجة يمكن للمتدبر أن يستفيدها بسهولة.

ويعلم من ذلك أيضاً أن ظهور العلم الإلهي والقدرة الإلهية إنما هي بخلق الخلق ولولاها لما عرف أحد وجوده وأنه أصل الخير والوجود ومنبعه.

وعن الرضا عليه السلام قال: (لم خلق الله سبحانه وتعالى الخلق على أنواع شتى ولم يخلقهم نوعاً واحداً؟ فقال: لئلا يقع في الأوهام أنه عاجز ولا يقع صورة في وهم ملحد إلا وقد خلق الله عز وجل عليها خلقاً لئلا يقول قائل: هل يقدر الله عز وجل على أن يخلق صورة كذا وكذا؛ لأنه لا يقول من ذلك شيئاً إلا وهو موجود في خلقه تبارك وتعالى فيعلم بالنظر إلى أنواع خلقه أنه على كل شيء قدير)[1].

(١) علل الشرائع: ج١ ص١٤.

حديث الكساء:

ومن ثمّ فإن نفس الفكرة الماضية وهي أن المعرفة تقود الإنسان إلى أن يتجوهر بجوهر الإنسان الولي (الإلهي).

بهذه الطريقة نقترب بالأذهان أكثر الى أسرار عظيمة نطقت بها بعض الأحاديث الشريفة، من قبيل الحديث القدسي المنسوب: «ما خلقت سماء مبنيّةً ولا أرضاً مدْحيّة، ولا قمراً مُنيراً، ولا شمساً مضيئة، ولا فلكاً يدور، ولا بحراً يجري، ولا فلكاً يسري، إلاّ في محبّة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء»[1]، وغيره من الأحاديث التي لسانها ومفادها مفاد الحديث السابق.

وحينما نريد أن نحصّل أحد تفسيراته فهو هذا المعنى الذي مر آنفاً؛ فالله عزّ وجل عندما يقول: (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) فلا مجال لتوهم المنافاة بين الحديث الأخير وبين المعنى المستفاد من الآية الكريمة؛ لأن الحديث يقول بأن العالم ما خلق إلا من أجل الإنسان الكامل، وفي معناه الآية الكريمة من أن غاية الخلق هي المعرفة، فيكون المعنى منسجماً حينئذ؛ لأن الكون والخلق كلّه من أجل المعرفة، والإنسان الكامل هو التجلي الصريح الواضح للمعرفة

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٧٦، المنتخب: ص٢٥٣.

حيث تمثلت المعرفة في العارف، فصار هو الإنسان وهو المعرفة، حينما كان هو حقيقة عينية خارجية لها وهي (المعرفة) حقيقة نظرية له.

وبعبارة أخرى: نحن حينما نفهم هذا المعنى من الآية من أن غاية الخلق المعرفة فإن ذلك بالنظر إلى أن المعرفة الحقة تصل بنا إلى الإنسان الكامل، وبلوغ الإنسان كماله إنما هو الهدف من خلقه؛ فالكون خُلق من أجل المعرفة حسبما عرفت، وحيث أن الإنسان العارف الذي تمثلت به المعرفة هو المصداق الأجلى لها، فصار الإنسان المتمثل بالمعرفة هو الهدف من الخلق، فيتضح حينئذ أن الإنسان الولي أو خليفة الله – والذي تجسد بمحمد وآله – هو الهدف من الخلق كما مرّ بيانه.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

اللعب هو الفعل المنظّم الذي له غاية خيالية. ونعني بكون الغاية خيالية هي النتيجة المتحصلة من اللعب من قبيل الربح

والخسارة وما إلى ذلك، فهي غاية غير حقيقية إذ نقول مثلاً فلان خسر وفلان لم يخسر. ومن الواضح أن الربح والخسارة هنا ليس لهما أي تحقق واقعي خارج إطار اللعب.

وبين اللهو واللعب نوع مقارنة في المعنى، فالإنسان يلجأ إلى ممارسة هذا الفعل (اللعب) من أجل أن يرفع الضجر والملل والكسل عن نفسه مثلاً.

وقوله تعالى: (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) صريح بإفادة نفي اللهو عن فعله وخلقه تعالى، حيث أن (لو) تدل على امتناع ما يعقبها.

وقوله تعالى: (إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) أي تأكيد للامتناع المذكور بـ (لو)، والمعنى ما كنّا فاعلين.

إن العمل الذي يقصد به رفع الكسل والضجر والملل، مثل هذا العمل يكون ممكناً بحق الفقير المحتاج الذي يكون قابلاً للتلبس بهذه الأحوال؛ ومن يكون ممكن التلبس بالملل والضجر يتصور معه أن يلجأ إلى الممارسات التي ترفع هذا الملل والضجر.

أما إن كانت الذات لا تصلح محلاً لمثل هذه الأحوال الإمكانية، التي تعرب عن النقص والقصور والاحتياج، وكانت ذاتاً

غنية مكتفية مستجمعة لكل كمال متصور في الوجود، فإن هذه الذات تكون أجلّ من أن نتصور بحقها الملل والضجر قطعاً.

وبهذا يتم تحصيل الفائدة المرجوة من الآية الكريمة، وهي أن خلق السماوات والأرض إنما كان لهدف. وقد عرفنا أن هذا الهدف هو أن (يعرفون)، وإذا لم يعرفوا ولم يعبدوا، عوقبوا؛ فالإنسان الذي يضيّع هدف الخلق، ذلك الهدف الذي لم يخلق إلا لأجله، يكون مخلاً بغايته الوجودية، ومورداً لاستحقاق اللوم والتقريع جزماً.

إن فلسفة الفعل الأخلاقي الاختياري تتكامل وتؤتي أكلها بهذا الطريق المؤكد، وبدونه لا مجال لتمام الحكمة، إنه الطريق المرسوم بواسطة الثواب والعقاب، فحيث كان الاختيار لزم الثواب والعقاب، وإلا لولم يجازى المظلوم ولم يعاقب الظالم لانتقضت الحكمة.

إن وراء هذه الحياة حياة أخرى، وحيث أن الإنسان مخلوق من أجل هدف، وكان من مقتضيات الحكمة أن يبلغ الإنسان ذلك الهدف بواسطة تحكيم إرادته وتنظيم اختياره، إذن فمن يطبق إرادته الخاصة على الإرادة الحكيمة الكاملة الساعية به إلى هذا الهدف يكون مستحقاً للثواب، ومن خالف هذه الإرادة

بإرادته متجافياً عن غاية إيجاده يكون مستحقاً للعقاب. وهذا معنى أن الآية تشير الى المعاد وارتباط حكمة الخلق بالمعاد والثواب والعقاب.

وفي الدعاء (اللهم وأنت يا سيدي الملك الحق الذي لا جور في حكمك، ولا حيف في عدلك، ولا تُسئل عما تفعل، خلقت الخلق على ما سبق في علمك من مشيتك لتصييرك إياهم إلى مصايرهم، وإنزالهم منازلهم، من ثوابك وعقابك)[(١)].

ونلاحظ أن الآية التي بعدها تختتم هكذا: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ١٨]، ومن الآراء في تفسيرها أن الخطاب هنا بهذا المعنى: أنتم الذين تتقولون على الله وتصفونه بالعبث وتتوهمون الباطل واللهو في حقّه عزّ وجل، الخطاب القرآني يتوعدكم بأن لكم الويل والعقاب يوم القيامة.

كما أن الاستدلال بأن العبث المنفي عن خلق الخليقة يدل سيرهم باتجاه الغاية، من هنا كان لبعثة الأنبياء أهم الأثر في قيادتهم لكمالهم؛ ذلك أنه لولا الخليفة لتلفت الخليقة؛ فضرورة الإمام توجب ضرورة الغاية.

(١) بحار الأنوار: ج٩٢ ص٤٣٢.

يقول الشيخ الصدوق: (أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠]؛ فبدأ عز وجل بالخليفة قبل الخليقة، فدل ذلك على أن الحكمة في الخليفة أبلغ من الحكمة في الخليقة، فلذلك ابتدأ به لأنه سبحانه حكيم، والحكيم من يبدء بالأهم دون الأعم، وذلك تصديق قول الصادق جعفر بن محمد عليه السلام حيث يقول: الحجة قبل الخلق، ومع الخلق، وبعد الخلق، ولو خلق الله عز وجل الخليقة خلواً من الخليفة لكان قد عرضهم للتلف، ولم يردع السفيه عن سفهه بالنوع الذي توجب حكمته من إقامة الحدود وتقويم المفسد. واللحظة الواحدة لا تسوغ الحكمة ضرب صفح عنها)[(١)].

الآية الرابعة:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة : ٦].

إن غاية التشريعات الإلهية هي لتطهر العبد عبر العبادة

(١) كمال الدين: ص٤.

والعمل والتفكر، ومن ثم هي تدعوه بهذا للتنور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فتكون غاية التشريع هي لتطهير العبد وأن يكون متنوراً وأن يتلبس بالطهر ويأخذ من نور الله تعالى ما يؤهله للتبصر في مسيرته الحضارية ويكشف ملابسات العالم وما يحيطه بهذا النور الإلهي؛ فيصل به الى الغاية من الخلق والهدف من الخلق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فيندبنا القرآن الكريم الى أن إيصال الإنسان الى عوالم الطهر والنور يمر عبر العلم والعمل، وذلك: بأن يعرف الإنسان طريقه ونفسه أولاً وما ينتظره من المعاد وما يؤول اليه أمره ثانياً، ومن ثم يعمل ما يوصله لغايته ثالثاً، وبعبارة مختصرة أي أن يعرف المبدأ والمعاد، وأن يعمل بالعبادة التي تنور باطنه وتخلصه من ثقل عالم المادة، مما يعني أن التكاليف والتشريعات الإلهية مناسبة للغاية من الخلق، أي أن حقيقتها من سنخ الهدف الذي يسير العبد إليه، فالالتزام بها على وجهها الدقيق يؤدي جزماً الى نقل العبد الى عالم النور والمعرفة وأن يحقق غاية الخلق في نفسه، ودولة العدل

الإلهي التي ننتظرها في آخر الزمان إنما هي التي تحقق غاية الخلق ليس في الفرد وحسب بل في الإنسانية كلها، بحيث تبسط العدل على جوارح الإنسان والنور والمعرفة في باطنه.

«ولا يوجد بين كتب الوحي كتاب ولا بين الأديان دين يعظمان من أمر العلم ويحرضان عليه بمثل ما جاء به القرآن والاسلام! وهذا المعنى هو الموجب لأن يبين الكتاب للإنسان حقائق المعارف أولاً وارتباط ما شرعه له من الأحكام العملية بتلك الحقائق ثانياً، وبعبارة أخرى أن يفهمه: أنه موجود مخلوق لله تعالى خلقه بيده ووسط في خلقه وبقائه ملائكته وسائر خلقه من سماء وأرض ونبات وحيوان ومكان وزمان وما عداها وأنه سائر إلى معاده وميعاده سيراً اضطرارياً وكادح إلى ربه كدحاً فملاقيه ثم يجزى جزاء ما عمله أيما إلى جنة أيما إلى نار فهذه طائفة من المعارف. ثم يفهمه أن الأعمال التي تؤديه إلى سعادة الجنة ما هي وما تؤديه إلى شقوة النار ما هي؟ أي يبين له الأحكام العبادية والقوانين الاجتماعية وهذه طائفة أخرى.

ثم يبين له أن هذه الأحكام والقوانين مؤدية إلى السعادة أي يفهمه أن هذه الطائفة الثانية مرتبطة بالطائفة الأولى وأن تشريعها وجعلها للإنسان إنما هو لمراعاة سعادته لاشتمالها على

خير الإنسان في الدنيا والآخرة وهذه طائفة ثالثة.

وظاهر عندك أن الطائفة الثانيـة بمنزلـة المقدمـة والطائفـة الأولى بمنزلة النتيجة والطائفة الثالثة بمنزلة الرابط الذي يربط الثانية بالأولى»[1].

الآية الخامسة:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَـهُ ثُـمَّ هَـدَى﴾ [طـه : ٥٠].

أي أنه تعالى أعطى كل الموجـودات وجودهـا ومـن ثـم خلع عليها الامكانيات اللازمة لتكاملها، بحيـث يـري كـل مخلـوق هداه وغايته ويوصله الى ما به وجوده ونفعـه وسـعادته. فغايـة كـل مخلوق وما به يصـل اليهـا كلّهـا أعطاهـا الله تعـالى لخلقـه، وحتـى النظام الطبيعي الذي يسير وفق قوانين خاصة ودقة محكمة كلّه من هداية الله تعالى لخلقه بعد إيجاده لهم؛ فدل الهداية الى الغاية على الغاية نفسها.

ومنه يظهر ما قلناه سابقاً من أن حكمـة الخلـق تتبعهـا غايـة

(1) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ج٣.

الخلق، فالحكمة والدقة في الصنع المتقن تدل على غاية رفيعة، فخلق الله تعالى كل شيء وأعطاه ما به قوامه ومن ثم هداه الى غايته سواء بما يوصله مباشرة اليها أو بما يدله عليها، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر : ٦٢-٦٣]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤].

إن الفطرة المغروزة في الإنسان تدلل وبوضوح على تلبية الرغبات المعنوية والروحية في الإنسان، فالفطرة تقوده الى الغاية، وبعبارة أخرى: إن الفطرة في بحثها عن عطشها للكمال اللامحدود تدلنا على أن الكمال اللامحدود هو الغاية وهو أن يسير الى المعرفة الإلهية: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم : ٤٢].

كما أن الجسم مصمم بما يعمر به الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] ويحقق الخلافة الإلهية على الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠]، فالعقل يسوس بدن الإنسان ليعمر الأرض والروح ترتقي به الى الخلافة الإلهية.

ولذا قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] بل يكلفها بما يسعها وتقدر عليه، فيناسب الهدف والغاية حينئذ جسد الإنسان وروحه، فيكون جسده قادراً على أن يحقق

الغاية الإلهية وهو مصمم للوصول به إليها، وتكـون روحـه كـذلك قادرة ومصممة لتصل الى الغاية والهدف من الخلق.

(ولو خير الإنسان بين هدفين وغايتين اختار الأسمى منهما غاية والأعلى بفطرته الغائية، هكذا هي طبيعته تدعوه إلى أن تكون له غاية نبيلة، وإلى أن تكون غايته أعلى الغايات وأكملها)[١].

(١) الغائية والتوحيد، إعداد: عمار الأركاني، بحث منشور على الإنترنت.

الفصل الثاني

الأدلة العقلية

(الحكمة في الخلق تدل على الغاية)

الدليل العقلي:

إن بعض الموضوعات تحتاج الى مقدمات عريضة للاستدلال عليها وقد تحتاج المقدمات هي الأخرى الى بيان وشرح لغير المتخصص، وهذا حاصل في السؤال عن الهدف من الخلق.

وأحياناً قد نطالب بتلخيص الأسئلة الجوهرية في الحياة بجملة أو أكثر بقليل، وقد نجد أن الخلاصات لمثل هذه الإشكاليات وما تشتمل عليه بحاجة الى بذل جهد وطاقة[١].

وواحدة من المشكلات المعرفية اليوم هي أن الأفكار المعمقة في

---

(١) في بعض المنسوب الى أمير المؤمنين عليه السلام «أنّ بعض اليهود اجتاز به وهو يتكلم مع جماعة فقال له: يا بن أبي طالب لو أنّك تعلَّمت الفلسفة لكان يكون منك شأن من الشأن فقال عليه السلام: وما تعني بالفلسفة؟ أليس من اعتدل طباعه صفا مزاجه، ومن صفا مزاجه قوى أثر النفس فيه، ومن قوى أثر النفس فيه سما إلى ما يرتقيه، ومن سما إلى ما يرتقيه فقد تخلق بالأخلاق النفسانيّة، فقد صار موجوداً بما هو إنسان دون أن يكون موجوداً بما هو حيوان، ومن صار موجوداً بما هو إنسان فقد دخل في الباب الملكي الصوري، وليس له عن هذه الغاية مفرّ، فقال اليهودي: الله أكبر يا بن أبي طالب لقد نطقت الفلسفة جميعها في هذه الكلمات رضي الله عنك». الكلمات المكنونة، الفيض الكاشاني، عن الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، الشيخ عباس جواد الكربلائي: ج١ ص٦٧.

التفكير الإسلامي لا يتيسر عادة بذلها بطريقة صحفية مبسطة بسطر واحد، أو بطريقة نعم أو لا.. وتكون بعض الأسئلة غريبة أحياناً كمن يقول بيّن هذه النظرية (كالنسبية العامة في الفيزياء مثلاً) في دقائق، فماذا يفعل المرء ليبين مثلها في هذه الدقائق المعدودة؟!.

ومن حسن الصدف أن شاباً التقيت به سريعاً وقال وكأنه على عجلة من أمره: لماذا خلقنا الله؟! أجبته: على عجل بطريقته: من الأفضل الوجود أو العدم؟ (العدم يعني اللاشيء ولم يكن هناك أي شيء وأي وجود)؟ فمن الأفضل حينئذ الوجود أو العدم؟.

قال: الوجود..، قلت: إذن الوجود أفضل، والله برحمته تفضل عليك وأوجدك.

رأيت الشاب وهو متخصص بالطب قد اقتنع وذهب.. ويبدو أننا بحاجة الى اختزال الأجوبة للمسائل العقدية والمعرفية الإسلامية لتلبي الحاجة الآنية المستعجلة لكثير من الناس.

لماذا خلق اللّه الإنسان العاصي وهو يعلم أن مصيره الى النار؟:

يسأل البعض ويقول: لماذا خلق الله الإنسان وهو يعلم أن مصير بعضهم الى النار؟.

قال في روح المعاني: (و قد ذكر الشهرستاني عن شارح الأناجيل الأربعة-صورة مناظرة جرت بين الملائكة و بين إبليس- بعد هذه الحادثة، و قد ذكرت في التوراة، و هي أن اللعين قال للملائكة: إني أسلم أن لي إلهاً هو خالقي و موجدي- لكن لي على حكمه أسئلة: ومنها: ما الحكمة في الخلق- لا سيما و قد كان عالماً أن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا النار؟)[(١)].

ولكن جوابه واضح، فإن الله تعالى إنما خلق الإنسان مختاراً لا مجبراً، فجعل مصيره بيد نفسه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨]. والنتيجة أن الإنسان مختار وله أن يعمل الخير وله أن يعمل الشر.

ومن الواضح أن علم الغيب لا يعني إلغاء الاختيار، ولو قلنا بأن علم الله يؤثر على الإنسان بهذا الشكل لكان الإنسان مضطراً ومجبوراً لا خيار له.

ولكن الصحيح أن علم الغيب ليس له تأثير على سير الحوادث؛ لأن علم الله تعالى بالأشياء قبل الخلق كعلمه بها بعد

(١) تفسير الآلوسي: ج٨ ص٩٢.

الخلق[1]؛ فالله تعالى عالم بالخلق من غير أن يسلبهم الاختيار أو يسلب تسبيب الأسباب.

إن جزاء الله تعالى على الفعل لا على العلم، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد : ٣١]، فهو تعالى وإن كان يعلم المجاهدين والصابرين قبل أن يبتليهم، ولكنه تعالى جعل الجزاء على فعل العبد لا على علمه.

فالعلم الإلهي إنما هو كاشف عن الفعل في مرحلة ما من فعل العبد ومباشرته له، فكشفه للفعل لا يعني أنه مولّد له بل إن اختيار العبد هو السبب الأخير المباشر في الفعل، وبالنتيجة مسؤوليته عنه؛ لأن نسبة الفعل إليه نسبة المعلول الى العلة، فكما أن الحرارة من النار فكذا الفعل من العبد.

كما إن الإنسان لا يقيس نفسه بالله تعالى الذي يعلم كل شيء ومحيط بكل شيء وكل شيء قائم به، ونحاول أن نقرب الفكرة بمثال: فلو أنك نظرت الى نملة صغيرة وهي تعبر السجادة التي أمامك، فإنك حينئذ تعرف أنها ستعبر من اللون الأحمر في السجادة الى اللون الأصفر، بينما لا تعلم النملة ما ينتظرها بعد اللون

(١) الكافي: ج ١ ص ١٠٧.

الأحمر لضيق أفقها وأنها لا تنظر إلا للحدود التي أمامها، ولا تعلم أن ما يعقب اللون الأحمر هو الأصفر. بينما أنت تلاحظ ذلك لسعة أفقك ووجودك عنها فترى ما لا تراه هي. فكونك ترى ما لا تراه وتعلم بما لا تعلمه لا يعني ذلك كونك مسؤولاً عن مصيرها واختيارها أو كون النملة مجبرة على أن تعبر باتجاه اللون الأصفر. وعليه، فلا يقيس الإنسان نفسه بالله تعالى، فعلم الله تعالى لا يدانيه وصف ولا يمكن أن يغيب عنه أي شيء بل كل شيء بعلمه.

إن علم الله تعالى باختيار العبد لا يلغي نفس هذا الاختيار، فإن الله تعالى قد قضى أجله على حسب اختيار العبد، أي أن قضاء الله تعالى سينزل بحسب اختيار العبد نفسه.

إن معنى كون الإنسان لم يُخلق بعد أنّه لا يستحق جنة أو نار؛ لأنه قبل خلقته لم يكن وهو عدم لا معنى للجنة والنار في حقه، فلا يقال لماذا خلق الله العاصي وهو يعلم بمصيره؛ فالعلم بالمصير غير ترتيب الجنة والنار لهذا المخلوق الذي لم يكن بعد ولا يستحق الثواب والعقاب بعد.

فضلاً عمّا دلّه الله تعالى عليه من الخير وبعث إليه الرسل والأنبياء عليهم السلام وأهل الصلاح، وعمّا خلقه له من العقل والفطرة ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس : ٢٠]، فهذه كلها تدلّه وتذكّره فلا محيص

من لوم العبد وحده على اختياره فيما لو أخطأ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام : ١٤٩].

لماذا خلق الزلازل والبراكين؟

ثم إن يخطر سؤالاً آخر وهو: لماذا خلق الله الشر والزلازل والبراكين؟ ويتخذ البعض من هذه الشبهة وهذا السؤال مبرراً للقول بعدم الإله.

في مقام الجواب نطالع النقاط التالية:

١- إن الشرور على قسمين: شرور أخلاقية كالقتل والظلم ونحوها، وهي ناتجة عن سوء اختيار الإنسان لا أن الله تعالى خلقها، فنتيجة لطبيعة خلقة الإنسان من كونه حراً ليس مجبوراً فهو يستغل ذلك للإضرار والظلم.

ولو رمى أحدهم حجارة من أعلى السطح على رأس أحدهم، فإنه حينها استخدم قوته في رفع الحجارة- مع كون القوة من رزق الله له- واستخدم قانون الجاذبية في اسقاط الحجارة، ومن ثم أضرت الحجارة الرجل وفق قوانين الجسم البشري، كل هذه القوانين التي خلقها الله تعالى لا تلغي كون الانسان حراً مختاراً

لأفعاله بلا أن ننسب فعله المباشر الى الله لأنه فعل ذلك الإنسان، ولكنه استخدم قوانين الكون والجسم لإسقاط الحجارة!.

٢- النوع الثاني من الشرور (الطبيعية): كالزلازل والبراكين والسيول، ومثل هذه تعد من العدم لا أنها وجود، فالعمى هو عدم الإبصار لا أنه وجود مستقل، والجوع هو عدم الشبع، والثكل هو عدم الولد، وهكذا، ومقتضى كون الشرور أعداماً فهي لا تحتاج الى ايجاد؛ فالعدم لا يحتاج الى من يوجده ولا ينسب لله تعالى.

الزلازل مثلاً تحدث نتيجة عدم انسجام بين طبقات الأرض إذ تنتقل الحرارة العالية من لب الارض الى الطبقات ثم تتحرر عبر زلازل وبراكين.

وكذلك السيول فهي نسبة عدم انسجام تيار المياه مع مجرى النهر في المناطق الرخوة والضيقة لا أنه وجود مستقل. وعندما ننسب تيار الماء القوي الى مجرى النهر يتولد السيل لا أنه موجود مستقل ينسب لله تعالى.

٣- الشرور أمور نسبية، فالسيول مؤذية للبعض، ولكنها خير من جهة أخرى، فهي تخصب التربة وتشحن المياه الجوفية وتحفظ التنوع البيولوجي وغير ذلك.

٤- طبيعة العالم المادي التزاحم، فلأننا في قيد الزمان والمكان، فلا بدّ حينئذ أن يقع الزلزال مثلاً في مكان وزمان ما وقد يزاحم ذلك وجود البشر فيه.

وعليه فهذه الشرور مؤلمة بمقتضى قانون التزاحم، لا بمقتضى أن الله تعالى هو الخالق لها، فهي عدمية نسبية كما عرفت فتحصل المزاحمة بين خيرها لشيء وشرها لشيء آخر.

وبعبارة أخرى: إن العالم المادي أو الدنيوي لا بدّ فيه - حال وقوع أي حدث- من زمان ما ومكان ما، فالعالم المادي يلازمه الزمان والمكان، وحينئذ إذا ما وقع زلزال في صحراء غير مسكونة فهو لا يعني شراً لأنه لم يؤذ احداً. وأما إذا وقع في مكان فيه بشر فهذا يعني أن البشر سيتأذون منه. فلازمية المكان والزمان مهمة. وهذا قانون التزاحم أي تزاحم وقوع الزلزال ووجود البشر.

ومن ثم فإن الشرور عدمية أي أنها عدم كما مر في النقاط. كما أنها نسبية فهي خير لأناس وشر لآخرين، فتكون أذيتها بسبب العالم الذي نحن فيه؛ إذ تحصل الأذية للتزاحم بين وقوعه في مكان ووجود البشر في ذلك المكان.

٥- إذا أدت الشرور الاخلاقية (كالظلم) الى شرور من نوع طبيعي (كالسيول والفيضانات) والعالم الحديث يعترف اليوم بأن

المصانع والاستخدام السيء للتكنولوجيا والتجارب الصاروخية وعدم الالتزام بشروط سلامة البيئة، كل هذه تؤدي الى الاخلال بالنظام البيئي للكرة الأرضية بحيث يسبب الفيضانات ونحوها ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦].

وعليه، لو أدت الشرور الأخلاقية الى ما يسمى بالشرور الطبيعية كما في الذنوب التي يعاقب الله عليها فتكون تلك الشرور بالنتيجة عقاب أي أن نتيجة الشر من الألم يعاقب به الله تعالى.

لماذا خلق الله المعاق؟

من الإثارات التي يحاول البعض إثارتها أيضاً هذا السؤال، وهو أنه لماذا خلق الله المعاق؟ والجواب عنه توضح عنه مجملاً فيما مضى، والآن نحاول في مقام الإجابة أن نقدّم عدّة نقاط:

١- إن الإعاقة ليست بسبب الخلقة ذاتها، فإنها بسبب من تزاحم المواد في عالم الدنيا، فالإعاقة ليست لمجرد تفاعل بيضة الانثى مع نطفة الذكر، بل يلحقها عوامل كثيرة جداً أثناء تكوين الجنين، كما لو تعرضت الأم للأشعة السينية، أو تناولت مواد

كيمياوية كالعقاقير الأفيونية أو الكحول أو الماريجوانا (نوع من العقاقير ذات تأثير نفساني، يستخرج من نبتة القنب الهندي التي هي عشب له تأثير مخدر) أثناء مدة الحمل، أو بسبب مرض في الأم كمرض السكري والالتهابات، أو بسبب عوامل داخل رحم الأم نفسه، كلها تؤدي الى اضطرابات في الكروموسومات.

عن الإمام الصادق عليه السلام في توحيد المفضل قال: (وأنت يا مفضل ترى أصناف الحيوان أن يجري أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد كالإنسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع، كما عليه الجمهور من الناس فأما ما يولد على خلاف ذلك فإنه لعلّةٍ تكون في الرحم أو في المادة التي ينشأ منها الجنين، كما يعرض في الصناعات حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته فيعوق دون ذلك عائق في الأداة أو في الآلة التي يعمل فيها الشيء فقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفنا فيأتي الولد زائداً أو ناقصاً أو مشوهاً ويسلم أكثرها فيأتي سوياً لا علّة فيه)[١].

وقد تكون التشوهات بسبب التوارث، ولذا ينصح الدين

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص ١٥٠.

بالاغتراب في الزواج لتحري سلامة الأولاد، وعن النبي صلى الله عليه وآله: (اغتربوا لا تُضووا[1])[2].

٢- إن الإنسان لا بدّ أن يضع حدوداً بين فهمه وبين قدرة الله تعالى وحكمته؛ لأنه ليس كل ما لا يفهمه يعني أنه ليس بصواب، فالكون اليوم لم يكتشف العلم منه إلا نسبة ضئيلة جداً، وعدها البعض بقدر ٥٪ فقط!، فالمادة المظلمة تشكل حوالي ٨٥٪ من الكون وهي لا تزال مجهولة الماهية!، وهذه العقيدة صارت اليوم واضحة مع تقدم المكتشفات العلمية التي تضعنا على حدود مجهولة لنا، وإن العلم اليوم عاجز عن أن يحل قضايانا الأساسية وهو الكون الموجود حولنا أو بعض الأمراض التي تعترينا!.

ومن ثم فإن العلم البشري لا يمكن بحال أن يثق بنفسه الى حد أكثر من واقعه، فضلاً عن أن يعرف بكل شيء، فضلاً عن أن

(1) قال الشريف الرضي رحمه الله: (وهذا استعارة ، والمراد انكحوا في الغرائب، ولا تنكحوا في القرائب؛ لأنهم يقولون: الغرائب أنجب. (والضوى) ضؤولة الجسم ودقته، ويقال: أضوت المرأة؛ إذا أتت بولد ضاوٍ، كما يقال: أذكرت، إذا أتت بولد ذكر. وكانوا يعتقدون أن القريبة تُضوي، كما أن الغريبة تُدهي، أي تأتي بالولد داهية.

(2) المجازات النبوية: ص ١٠٠.

يرى نفسه هو وعلم الله وكأنه لا يرى فرقاً بين المخلوق والخالق وقدرته وحكمته التي لا نستطيع بحال تصورها!.

سأل زنديق الإمام الصادق عليه السلام فقال: (فما هذا الفساد الموجود في العالم، من سباع ضارية، وهوام مخوفة وخلق كثير مشوهة، ودود، وبعوض، وحيات، وعقارب، وزعمت: أنه لا يخلق شيئاً إلا لعلّة؛ لأنه لا يعبث؟.

فأجابه الإمام عليه السلام: ألست تزعم أن العقارب تنفع من وجه المثانة والحصاة، ولمن يبول في الفراش، وأن أفضل الترياق ما عولج من لحوم الأفاعي، فإن لحومها إذا أكلها المجذوم بشب نفعه، وتزعم أن الدود الأحمر الذي يصاب تحت الأرض نافع للأكلة؟!.

قال: نعم.

قال عليه السلام: فأما البعوض والبق فبعض سببه أنه جعله أرزاق الطير، وأهان بها جباراً تمرد على الله وتجبر، وأنكر ربوبيته، فسلط الله عليه أضعف خلقه ليريه قدرته وعظمته، وهي البعوض، فدخلت

في منخره حتى وصلت إلى دماغه فقتلته[1]، واعلم أنّا لو وقعنا على كل شيء خلقه الله تعالى لـمَ خلقه؟ ولأي شيء أنشأه؟ لكنّا قد ساويناه في علمه، وعلمنا كلما يعلم، واستغنينا عنه، وكنا وهو في العلم سواء!)[2].

من هنا فإنه حتى لو قلنا بأن وجود العوق ليس معلوم الحكمة ولكن يمكن القول بأن حكمته مجهولة لدينا من جهة محدودية اطلاعنا على الحكمة الإلهية.

٣- إن خلق الله تعالى للعالم بنظام الأسباب والمسببات وفقاً للسنن الإلهية الثابتة يجعل نسبة العوق الى الأسباب المباشرة له لا الله تعالى، كما مر بالنقطة الأولى، أي بسبب أن بعض الشرور يلازم عالم المادة، الأمر الذي يقتضي أن تُعرف نعمه بما يُسلب منها، فتُعرف نعمه وفضله والعافية والكمال بسبب من رؤية النقص، فكما أنك تعرف النهار من تعاقب الليل وأنه موجود، فكذا تعرف

(١) إما بالقول أنه يمكن للحشرة الصغيرة الولوج الى الدماغ عبر العظم الغربالي من الأنف، أو عبر الأذن الوسطى ومن ثم إلى الفص الصدغي، أو عن عبر بوق شتاسيوس من البلعوم إلى الأذن الوسطى. أو قد تكون ولجت بطريق إعجازي لكي يثبت الله تعالى قدرته.

(٢) الاحتجاج، الطبرسي: ج٢ ص٨٦.

الكمال من رؤية النقص والعاهة، وهو بالنتيجة ليس منسوباً لله تعالى، بل لتزاحم الأسباب والمسببات على طبق المكتوب من السنة الإلهية والقوانين الحاكمة في الكون، من تأثير المواد الكيمياوية أو الأشعة أو العامل الوراثي بالطفل المعاق.

٤- هذا غير أن الصبر على البلاء سيكافئه الله تعالى، فيكون هذا من البلاء الذي وعد الله عليه الإحسان، ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود : ١١٥]، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢]، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٢].

وغير سقوط التكليف عن ذوي العاهة، فما وضع الله عنهم بحجم ما أُخذ منهم من النعم، وكذلك فإن ما أُعطوا غير ما أُعطي غيرهم من النعم، وهو الحكيم العليم بما ليس يصلح لكل أحد، فما أعطاه عن فضل وما منعه عن عدل!.

وعن جابر بن يزيد الجعفي قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: (يا ابن رسول الله إنا نرى الأطفال منهم من يولد ميتاً ومنهم من يسقط غير تام، ومنهم من يولد أعمى، وأخرس وأصم، ومنهم من يموت من ساعته إذا سقط إلى الأرض، ومنهم من يبقى إلى

الاحتلام، ومنهم من يعمر حتى يصير شيخاً، فكيف ذلك، وما وجهه؟ فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أولى بما يدبره من أمر خلقه منهم، وهو الخالق والمالك لهم، فمن منعه التعمير، فإنما منعه ما ليس له، ومن عمره فإنما أعطاه ما ليس له، فهو المتفضل بما أعطى، وعادل فيما منع، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[1].

النظام الأحسن:

خلق الله تعالى العالم بأحسن نظام حيث تقتضي الحكمة الإلهية أن يكون خلق العالم على طبق تلك الحكمة التي لا يتصور ما هو أسمى منها، فيقتضي ذلك خلقُ العالم الإمكاني على أحسن التنظيم والهندسة؛ ليترشح من ذاته تعالى -وهي أصل الخير والفيض والحسن- فعله في نظامه، وهو الأحسن.

إن الحكمة الإلهيّة هي العلم بالأشياء على النظام الأحسن والأكمل، وهي -على هذا- السبب والعلّة في وجود الممكنات على وفق هذا النظام، من جهة أن الإرادة هي العلم بالنظام الأحسن والأكمل؛ فترجع الإرادة الى العلم، أي كونه مريداً سبحانه يرجع

(١) التوحيد، الصدوق: ص٣٩٧.

الى نفس كونه يعلم بالأشياء على أحسن الوجه وأكمل النظم، فإرادة خلق العالم تنطوي على كونه عالماً بالنظام الأحسن وينفذ إرادته على طبق هذه الحكمة، فتكون الحكمة على هذا التفسير علّة إيجاد الممكنات على أحسن النظام.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤].

من هنا، فإن كون ذاته أصل الخير ومنبع الوجود فلا محالة تنتهي إليه كل علّة وهو علّة العلل، وينتهي إليه كل فعل من جهة علّته الأولى للوجود فيكون غاية لكل الوجود، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم : ٤٢].

وكذلك فإن كل الكمالات التي تطلبها المخلوقات وجبلت على تحصيلها إنما هي عنده تعالى فهو غاية لها؛ لأن جميعها تطلب كمالها منه.

ونحاول الآن أن نرصد شيئاً من حكمة الله تعالى في هندسة العالم بما ينسجم والغاية من خلق الإنسان.

إنه لا يمكن بحال أن تنسجم معاني الاختبار والابتلاء ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ [التوبة : ١٦]، وطلب إعمار الأرض

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] ومهمات الغايوية إلا بناء على الاختيار؛ فالاختيار والحرية للإنسان في أن يختار السعادة أو الشقاء وأن يجازى على أفعاله بالثواب أو العقاب وأن يعمل في الأرض ويعمرها إنما يتطلب كل ذلك أن يكون العالم مادياً أي قابلاً للتكامل، فلو كان الفاعل غير مختار لانتفى الثواب والعقاب ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥]، ولو قيد جبراً الى غايته لكانت الغاية له كما قبلها من المحطات ليس لها قيمة، ولا يكلف ببلوغها حينئذ؛ لأن التكليف متفرع وناتج من الاختيار.

وحيث كان الاختيار لا بدّ من العقل وإلا كان كالبهائم، فتتوقف الغاية على العقل حينئذ، وحيث كان العقل لا بدّ من التكامل من النقص الى الكمال شيئاً فشيئاً حتى يبلغ الإنسان مقصده.

هذا بالنسبة الى الإنسان، أما بالنسبة للعالم، فإن النظام الأحسن يقتضي أن يكون بما يهيئ للإنسان سبيله وغايته، ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان : ٢٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ١٣]، فلا يتناسب أن يكون الاختيار والعقل إلا بأن يكون العالم

بحسب الأسباب والمسببات، فالنظام الأحسن هو إيجاد الأشياء من أسبابها التي تنتهي إليها لكي يتحقق اختيار الإنسان بما هـو اختيـار، وإلا لو نسب كل شيء لكل شيء لما نسب اختيار الإنسـان لنفسـه، فالإيجاد حينئذ بإتيان الأمر منه تعالى بالواحـد بعـد الواحـد ونسـبة كل أمر لعلّة.

فتقتضي الحكمة إذن أن يختلف العالم المادي تبعاً لترتب الأسباب والمسببات، وإلا لو كان العالم غير مختلف لكـان يوجـد مخلوق واحد وسنخ واحد مـن الموجـودات الإمكانيـة، ولا معنـى حينئذ لتكريم الإنسان؛ لأنه مع التساوي لا يوجد ما يتمـايز بـه عـن غيره، ولا معنى للتكامل والاختبار الذي على أساسه يختبر الصـالح من الطالح من جهة التساوي المذكور، ولما أمكن للعقل أن يستدل على قدرته بصنائع عجائبه، ويكـون التكـرار بمثابـة اللغـو الـذي لا يليق بساحته، ولذا لا بدّ من التنوع والاختلاف، فيعرف من الحسـن القبيح ومن النقص الكمال ومن الضعف القوة كما عرفته فيما سبق.

إن معنى النظام أنه لا يقصر النظر الى موجـود مـا بمـا هـو بمعزل عن النظام نفسه، لأن العالم لا يقبـل التجزئـة، فالنبـات مـثلاً تقوم بعملية البناء الضوئي حيث يـتم فيهـا تحويـل الطاقـة الضـوئية الشمسية مـن الطاقـة الكهرومغناطيسـية علـى شـكل فوتونـات إلـى

الطاقة الكيميائية التي تُخزن في روابط سكر الجلوكوز ومن ثم فهي تقوم بعملية تعاكس عملية تنفس الإنسان وكأنها تتكامل معه بالفعل، فتنتج عملية البناء الضوئي الأكسجين الذي نستنشقه في عملية التنفس، وفي المقابل تسحب ثاني أوكسيد الكربون الذي نزفره، وفي كل جزيئة من ثاني أكسيد الكربون تدخل في معادلة البناء الضوئي يقابلها جزيئة من الأكسجين ناتجة منها، فنجد الانسجام واضحاً والترابط جلياً بين كل العالم، وتبخر المياه بحرارة الشمس كذلك، إذ تتحول مياه البحار والمحيطات الى بخار يصعد الى الجو فيصير سحاباً، وينزل مطراً الى الأرض، فتنمو به النباتات، ومن ثم يأكلها الإنسان والحيوان، وستأتي المزيد من الشواهد أيضاً.

ومع هذا الترابط فإن لا ينظر الى الموجود من حيث هو بل من حيث وجوده في ضمن النظام، فسم الأفعى قبيح من جهة ولكنه حسن من جهة كونه علاجاً للأمراض، والجاذبية الأرضية مهمة جداً لحياتنا وبها دوام كوكبنا واستقرار الحياة، ولكنها قبيحة بالنسبة لإنسان يسقط من فوق بيته الى الأرض، والفرو للدب حسن من جهته ولكنه قبيح بالنسبة الى الدجاج، ومثله صدف السمك وريش الدجاج وزرقة العين وحمرة الشفاه، وهكذا.

فالله تعالى ما جعل المشمشة مشمشة، بحسب الكلمة المشهورة لابن سينا، بل أوجدها هكذا، أي أنه خلق المشمشة من أول الأمر هكذا لا أنه خلقها ومن ثم جعل لها صفة كونها مشمشة، أي أنه تعالى جعل كل حسن في مكانه المناسب ولم يجعل الجاذبية مثلاً قبيحة لفلان، أو السم قبيح لآخر، وإنما جعله للأمور والأشياء في مكانها والمناسب لها، والقبح هو من جهة تزاحم العالم المادي لا أكثر، ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه : ٥٠].

قال زنديق للإمام الصادق عليه السلام : (فأخبرني هل يعاب شيء من خلق الله وتدبيره؟ قال الإمام عليه السلام: لا، قال: فإن الله خلق خلقه عزلاً، أذلك منه حكمة أم عبث؟ قال: بل منه حكمة. قال: غيرتم خلق الله، وجعلتم فعلكم في قطع الغلفة أصوب مما خلق الله لها، وعبتم الأغلف، والله خلقه، ومدحتم الختان وهو فعلكم، أم تقولون أن ذلك من الله كان خطأ غير حكمة؟!

قال عليه السلام: ذلك من الله حكمة وصواب، غير أنه سن ذلك وأوجبه على خلقه، كما أن المولود إذا خرج من بطن أمه وجدنا سرته متصلة بسرة أمه، كذلك خلقها الحكيم فأمر العباد بقطعها، وفي تركها فساد بيّن للمولود والأم، وكذلك أظفار الإنسان أمر إذا

طالت أن تقلم، وكان قادراً يوم دبر خلق الإنسان أن يخلقها خلقة لا تطول، وكذلك الشعر من الشارب والرأس، يطول فيجز، وكذلك الثيران خلقها الله فحولة، وإخصاؤها أوفق، وليس في ذلك عيب في تقدير الله عزّ وجل)[١].

ثم إن عالم المادة يتضمن الحركة من فقدان الشيء الى وجدانه وامتلاكه، وهو معنى التكامل، فتتحرك الموجودات المادية من النقص الى الوجدان، وتتزاحم هذه الموجودات فيما بينها لتكتسب الخير والكمال، وفي أثناء وجدان موجود ما كماله بحركته يحصل التزاحم بينه وبين موجود آخر.

(وليس المراد بنفي التعارض ارتفاع التنازع والتزاحم من بين الأشياء في عالمنا المشهود، فإنما هو دار التنازع والتزاحم، لا يرى فيه إلا نار يخمدها ماء، وماء تفنيها نار، وأرض يأكلها نبات، ونبات يأكله حيوان، ثم الحيوان يأكل بعضه بعضاً، ثم الأرض يأكل الجميع، بل المراد أن هذه الأشياء على ما بينها من الافتراس والانتهاش تتعاون في تحصيل الأغراض الإلهية ويتسبب بعضها ببعض للوصول إلى مقاصدها النوعية، فمثلها مثل القدّوم (آلة

(١) الاحتجاج: ج ٢ ص٨٦.

للنحت والنجر) والخشب، فإنهما مع تنازعهما يتعاونـان فـي خدمـة النجـار فـي صـنعة البـاب مـثلاً، ومثـل كفتـي الميـزان فإنهمـا فـي تعارضهما وتصارعهما يطيعان من بيده لسان الميزان؛ لتقدير الوزن، وهذا بخلاف الباطل كوجود كلال في القدوم أو بخس في المثقال فإنه يعارض الغرض الحق ويخيّب السعي؛ فيفسد من غيـر إصـلاح ويضر من غير نفع)[(١)].

وكذلك فإن النظام الأحسن يتضمن نهايـة لبـدن الإنسـان، وذلك بالموت، فحيث عرف الإنسان نهايـة عـالم التكليـف وعـالم العمل بلا جزاء في الدنيا عرف من خلال ذلك عالم الآخرة وعـالم الجزاء ولا عمل!.

إن الموت ليس نهاية الإنسان، فالنفس الإنسـانية مظهـر الله تعالى وعاكسة لصفاته، وهـو الحـي الـذي لا يمـوت، وحينهـا فـإن الموت ليس إلا محطة لنهاية الدنيا لا نهاية الإنسان، حيث يـتم فـي هذه المحطة تفريق الجسم عن الروح، وفـي الآيـة الكريمـة ﴿اللَّـهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر : ٤٢]، أي أن الله تعالى هو الذي

(١) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ج١١ ص٣٣٩.

يتوفى أي يقبض الروح ويقطعها عن البدن، والموت هو للبدن لا لها.

والمراد من ذلك هو الوصول الى الغاية السامية للحياة والتي لا يمكن أن يصلها الإنسان وهو في طور الحياة المادية والتشكل الجسماني؛ فاقتضت حكمته أن يصل به الموت الى نهاية البدن واستيفاء الأعمال الى النشأة الأخرى وعالم القدس، حيث يمضي الإنسان بحلته الملكوتية من بعد الموت الى حيث المبدأ والغاية، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٨١]، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران : ٢٨]، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ١٠٥].

ولهذا ففي الرواية أن الإمام الهادي عليه السلام دخل على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع من الموت فقال له: (يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه، أرأيتك إذا اتسخت وتقذرت وتأذيت من كثرة القذر والوسخ عليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أن الغسل في حمام يزيل ذلك كلّه، أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك أو ما تكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك؟ قال: بلى يا ابن رسول الله. قال: فذاك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك من سيئاتك، فإذا أنت

وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كل غم وهم وأذى، ووصلت إلى كل سرور وفرح، فسكن الرجل واستسلم ونشط وغمض عين نفسه ومضى لسبيله)[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (الانسان خلق من شأن الدنيا وشأن الآخرة، فإذا جمع الله بينهما صارت حياته في الأرض؛ لأنه نزل من شأن السماء إلى الدنيا، فإذا فرق الله بينهما صارت تلك الفرقة الموت ترد شأن الأخرى إلى السماء... ويرجع كل إلى جوهره الأول)[2].

موقع المجموعة الشّمسية من المجرّة وإدارة التوازنات:

نحاول أن نلقي إطلالة مهمّة وجوهرية في الدليل العقلي على خلاقية هذا العالم الذي نعيش فيه، والنظام الأحسن والدقيق الذي يشتمل عليه والذي يدلل على أن وراء الكون مدبر وخالق ورب، لم يزل ولا يزال يفيض بالعناية والتدبير والحفظ علينا وعلى الكون، ولو انقطعت رعايته لحظة واحدة لانتهى النظام كلّه، كما

(١) معاني الأخبار، الصدوق: ص ٢٩٠.

(٢) علل الشرائع، الصدوق: ج ١ ص ١٠٧.

أن النظام الأحسن هذا يدلل على حكمة الصانع، وحكمته تدلل على كون غايته من الخلق رفيعة وسامية.

يقول البروفيسور مايكل دينتون في كتابه: مصير الطبيعة NATURE'S DESTINY: الحقيقة التي تملك على المرء عقله هي تميز الكون بأنه ملائم لكشف مجاهيله وسبر أغواره فضلاً عن كونه ملائماً لنا من ناحية حاجياتنا البيولوجية؛ لأنه يهيّئ لنا الوسط الملائم لنشأة الحياة... والعامل المهم الذي يساعدنا كبشر في استكشاف جنبات الكون والتعرف على أسراره هو وقوع مجموعتنا الشمسية مجاورة لأحد أذرع مجرتنا، ولو كانت هذه المجموعة تقع في مركز إحدى المجرات لاستحال علينا استكشاف بنيان المجرة الحلزونية واستحال أيضاً التعرف على الكون وجمع المعلومات عنه. إنّ موقع المجموعة الشمسية في درب التبّانة يعتبر دليلاً قاطعاً على التصميم الخارق، ولو كان هذا الموقع غير الذي عليه لما نشأت الحياة على كوكبنا[(١)].

(١) انظر في ذلك وما سيأتي من المعلومات العلمية: الكون يتحدى العشوائية، إعداد: هالة رسلان، مقال منشور، ويمكن مشاهدة العشرات من الوثائقيات العلمية التي تؤكدها.

يمثّل كوكب المشتري درعاً واقياً للحياة على كوكب الأرض، ويؤدّي كوكب المشتري هذه المهمة الخطيرة عن طريق كتلته الضخمة وعن طريق مجاله المغناطيسي القوي، ويحول هذا الكوكب الضخم دون سقوط الآلاف من النيازك على كوكب الأرض والتي يؤدي سقوطها حتما إلى فناء البشرية.

والعامل الذي يحمي الكواكب من تشتتها في الفضاء هو التوازن الموجود بين قوة جذب الشمس والقوة الطاردة المركزية للكواكب. فالشّمس بكتلتها العظيمة تؤثر على الكواكب بقوة جذب كبيرة جدّاً ولكنّ الكواكب بدورانها حول نفسها توازن قوة الجذب بقوة الطرد المركزي وتتخلّص من جذب الشمس إلى حد ما، ولو كانت سرعة دوران الكواكب أقل مما هي عليه لانجذبت كلياً نحو الشمس وابتلعت من قبلها مع انفجار كبير يحدث نتيجة البلع. ولو افترضنا العكس، أي لو كانت سرعة دوران الكواكب أكبر مما هي عليه عندئذ لن تكفي قوة الجذب الخاصة بالشمس لمسك الكواكب في مداراتها وبذلك تتشتت هذه الكواكب في الفضاء، إلاّ أنّ الواقع أن هناك توازناً بين القوتين يستند إلى دقّة فائقة تستمر بموجبها المجموعة الشمسية في البقاء.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذا التوازن موجود لدى كل كوكب على حدة، وسبب ذلك اختلاف الكواكب من ناحية بعدها عن الشمس، وكذلك اختلافها من ناحية الكتلة؛ ولهذا السّبب فإنّ كلّ كوكب يحتاج إلى سرعة دوران معينة كي يتحقق التوازن المذكور، أي عدم الانجذاب كلّياً نحو مركز الشّمس وكذلك عدم الانفلات في الفضاء. و لا شك أنّ هذا التوازن يفعل فعله بالتأكيد على كوكبنا الأرضي. وعلى سبيل المثال كوكب المشتري فهذا الكوكب يعتبر الأكبر من ناحية الكتلة ويعتبر وجوده مهماً لحفظ توازن الأرض في حركتها، وأثبتت الأبحاث الفلكية أن هذا الكوكب مهم لأحداث التوازن ليس للأرض فقط وإنما لباقي كواكب مجموعتنا الشمسية.

وهناك أمر آخر متعلق بهذا الكوكب وهو احتمال اصطدام المذنّبات بالأرض وبأعداد كبيرة لولا كوكب المشتري لأنّه بكتلته العظيمة يشكل مجالاً مغناطيسياً يستطيع أن يجعل النيازك والمذنبات تنحرف عن مسارها المتجه نحو الأرض، وبهذه الصّورة يؤدّي هذا الكوكب وظيفة الدّرع الواقي للأرض عن طريق عمل مظلة مغناطيسية عملاقة.

يقول جورج فثريل GEORGE WETHERILL: لو لم يوجد كوكب المشتري في مكانه الذي هو فيه لأصبح احتمال اصطدام النيازك والكويكبات الموجودة بالقرب من الأرض أكثر بألف مرة من الاحتمال السّاري حالياً في الحسابات الفلكية... ولو لم يكن كوكب المشتري موجوداً في مكانه الحالي ما كنّا نوجد نحن البشر ولما كان في إمكاننا البحث عن أصل مجموعتنا الشمسية.

وكذلك فإنّ الثّنائي المتكون من الأرض والقمر لهما دور كبير في تحقيق التوازن في بنيان المجموعة الشّمسية، فلو لم يكن هذا الثنائي موجوداً لأثّرت الجاذبية الهائلة لكوكب المشتري على الكواكب الداخلية مثل عطارد والزهرة مؤدية إلى عدم الاستقرار فيهما، ويتحول هذا الأمر بمرور الزمن إلى اقتراب مدارات كل من هذين الكوكبين من بعضهما إلى درجة كبيرة جداً، وهذا التقارب يؤدي إلى انفلات كوكب عطارد من المجموعة الشمسية وتغير مدار كوكب الزهرة، وقد أثبت خبراء برمجة الكمبيوتر أن الكتل الخاصة بالكواكب ومداراتها حول الشمس هي المعطيات المثالية المسببة لهذا التوازن العجيب في مسار المجموعة الشمسية منذ

مليارات السنين وأي تغيير في هذه المعطيات مهما كان طفيفاً يؤدي حتماً إلى انعدام وجودها وبالتالي انعدام وجود البشرية.

التوازنات في كوكب الأرض:

ميل محور الأرض: لو كان محور الأرض أكثر ميلاناً مما هو عليه: لكان التفاوت الحراري كبيراً جداً بين أرجاء الأرض المختلفة.

ولو كان محور الأرض أقل ميلاناً مما هو عليه: لحدث نفس التفاوت الحراري الكبير جداً بين أرجاء الأرض المختلفة.

سرعة دوران الأرض حول محورها: لو كانت هذه السرعة أقل مما هي عليه: لكان التفاوت الحراري كبيراً جداً بين الليل والنّهار.

ولو كانت هذه السرعة أكبر مما هي عليه: لكانت الرياح المتحركة ضمن الغلاف الجوي تهب بسرعة كبيرة جداً، وبالتالي تغدو الحياة مستحيلة تحت تأثير الزوابع والأعاصير والفيضانات المهلكة.

قوة الجذب المتبادلة بين الأرض والقمر: لو كانت هذه القوة أكبر مما هي عليه: لأثرت قوة الجذب العالية في القمر على

ظروف الغلاف الجوي وعلى سرعة دوران الأرض حول محورها وكذلك على ظاهرة المد والجزر في المحيطات تأثيراً بالغاً.

ولو كانت هذه القوة أقل مما هي عليه: لحدث تغيير كبير وشديد التأثير في الأقاليم المناخية للأرض.

الجاذبية الأرضية: ولو كانت الجاذبية الأرضية أقوى مما هي عليه: لتسبب ذلك في تراكم المزيد من غاز الأمونياك وغاز الميثان في الغلاف الجوي، وبالتالي صعوبة الحياة على كوكب الأرض.

ولو كانت أضعف مما هي عليه: لتسبب ذلك في فقدان الغلاف الجوي للكثير من الماء و بالتالي انعدام الحياة على هذا الكوكب.

بعد الأرض عن الشمس: لو كان هذا البعد أكبر مما هو عليه: لأصبحت الأرض شديدة البرودة ولأصيبت الدورة المائية بخلل كبير، و بالتالي يلفّ أرجاء هذا الكوكب عصر جليدي.

ولو كان هذا البعد أقل ممّا هو عليه: لاحترقت الأرض بالحرارة القاتلة، ولحدث الخلل الجسيم في دورة الماء.

سمك القشرة الأرضية: وكانت القشرة الأرضية أكثر سمكاً مما هي عليه: لحدث امتصاص كبير للأوكسيجين من الغلاف

الجوي إلى القشرة.

ولو كانت هذه القشرة أقل سمكاً ممّا هي عليه: لانفجرت الحمم البركانية في كل مكان و بالتالي تنعدم الحياة على هذا الكوكب.

كمية غاز ثاني أكسيد الكاربون و الماء في الغلاف الجوي: فلو كانت هذه الكمية أكبر مما هي عليه: لازدادت حرارة الغلاف الجوي زيادة كبيرة. ولو كانت أقل مما هي عليه: لانخفضت حرارة الغلاف الجوي انخفاضاً كبيراً.

كمية الأوكسيجين في الغلاف الجوي: فلو كانت هذه الكمية أكبر مما هي عليه: لاحترقت النباتات و المواد الهيدروكاربونية بسهولة كبيرة جداً. و لو كانت هذه الكمية أقل مما هي عليه: لانعدمت قدرة الأحياء على التنفس.

سمك طبقة الأوزون: لو كانت هذه الطبقة أكثر سمكاً مما هي عليه: لانخفضت حرارة سطح الأرض انخفاضاً كبيراً، ولو كانت أقل ممّا هي عليه: لارتفعت حرارة سطح الأرض ارتفاعاً كبيراً و لانعدمت المقاومة نهائياً تجاه الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس.

المجال المغناطيسي للأرض: لو كـان أشـد ممـا هـو عليـه: لسبب رياحاً كهرومغناطيسية شديدة جداً، ولو كان أضعف مما هو عليه: لضعفت مقاومة الأرض أمام الرياح الشمسية التي هـي عبـارة عن جسيمات مقذوفة من الشمـس، وفـي كلتـا الحالتيـن تصبح الحياة مستحيلة على هذا الكوكب.

نسبة الأوكسيجين والنيتروجين فـي الغـلاف الجـوي: فلـو كانت نسبتها أكثر مما هي عليه: لازدادت سرعة الفعاليات الحياتية بصورة تسبب لها ضرراً بالغاً، ولو كانت أقل مما هي عليه: لأبطأت هذه الفعاليات الحياتية بصورة تسبب لها ضرراً بالغاً أيضاً.

إنّ مقـدار حجـم الأرض مهـمّ جـداً كأهميـة بعـدها عـن الشـمس وأهميـة سـرعة دورانهـا أو الشّـكل الخـارجي لهـا. وكبـر الأرض هو بقدر مـا يـتلاءم مع وجـود البشـرية عليهـا واسـتمرارها بصورة متطابقة تماماً من ناحية المقاييس المفترض وجودهـا، ولـو قارنّا كتلة عطارد التي تشكل نسبة ٨٪ من كتلة الأرض أو مع كتلة المشـتري التـي تكبـر الأرض بمقـدار ٣١٨ مـرة لوجـدنا أن هـذه الكواكب تختلف من حيث الكتلة اختلافاً كبيراً. ويمكننا عبر هذه المقارنة أن نـدرك بـأنّ كتلـة الأرض لهـا قيمـة معينـة هـي الأمثـل والأكثر ملاءمة وأن هذه القيمة لم تأت مصادفة قط.

ولو تأمّلنا وتمعنا في مقاييس الكرة الأرضية لتوصلنا إلى كونها الأمثل والأنسب لمثل هذا الكوكب. ويعطي عالمان (بريس PRESS وسيفر SIEVER) معلومات قيمة عن مدى ملاءمة مقاييس الأرض وأبعادها كما يلي:

إن نوع المعادن الثقيلة الموجودة في مركز الأرض ونسبها وسرعة تفاعلاتها تعتبر عوامل مهمة في تكون المجال المغناطيسي الواقي للأرض، ويعتبر هذا المجال كدرع واق للأرض من الإشعاعات المميتة والأجسام الخطيرة.

إنّ كبر الأرض هو بالضبط بقدر ما يفترض فيه أن يكون، ولو كان ذا قيمة أصغر لضعفت جاذبيتها ولما استطاعت أن تمسك الغلاف الجوي المحيط بها، ولو كان ذا قيمة أكبر لقامت بمسك الغازات السّامة أيضاً ولتسمم غلافها الجوي وبالتالي تنعدم الحياة على سطحها .

هناك عامل آخر يضاف إلى عامل الكتلة من جملة العوامل المتلائمة وهو عامل البناء الدّاخلي للأرض، فالطبقات المكونة لكوكب الأرض تكسبه مجالاً مغناطيسياً يلعب دوراً رئيسياً للحفاظ على حياتنا. ويعلق بريس وسيفر على هذا الأمر بالقول:

إنّ نواة الأرض تعتبر مولّداً للحرارة يستمد قوته عبر الإشعاعات النووية، وتتميز هذه النّواة بتوازن حساس جداً... ولو كان هذا المولد يعمل بشكل أبطأ لما استطاعت القارّات أن تتخذ شكلها الحالي ... وكذلك لما انصهر الحديد وبالتّالي لا يسيل نحو المركز ومن ثمّ لما تكوّن المجال المغناطيسي المعروف للأرض...ولو كان هذا المولد يعمل بسرعة أكبر مما هو عليه كافتراض لوجود وقود إشعاعي أكثر للأرض لتكونت السحب البركانية ملبدة السماء وحاجبة ضوء الشّمس مؤدية بذلك إلى زيادة كثافة الغلاف الجوي مع زيادة ملحوظة في الانفجارات البركانية والزلازل الأرضية.

والمجال المغناطيسي الذي يتحدث عنه هذان العالمان مهم بالنّسبة إلى حياة البشر، وهذا المجال ناشئ من مكونات الأرض كما ذكرنا. فمركز الأرض يحتوي على عناصر ذات صفات مغناطيسية كالحديد والنيكل، ويتميز مركز الأرض بأنّه يتألف من جزأين: خارجي ويكون سائلاً وآخر داخلي ويكون صلباً، وهذان الجزآن يدوران حول بعضهما البعض وينتج من هذا الدّوران نوع من الحثّ المغناطيسي على المعادن الثقيلة وبالتّالي ينشأ مجال مغناطيسي، ويمتد تأثير هذا المجال المغناطيسي حتى خارج

الغلاف الجوّي للأرض ويشكل حزاماً واقياً لهذا الكوكب يقيه من الأخطار القادمة من الفضاء الخارجي، ومن جملة هذه الأخطار الإشعاعات الكونية القادمة من النجوم والتي تعتبر مميتة طبعاً ولا تستطيع أن تخترق هذا الحزام الواقي، ويمتد تأثير هذا الحزام حتى عشرات الآلاف من الكيلومترات في الفضاء الخارجي على شكل أحزمة مغناطيسية تدعى أحزمة فان آلين والتي تقي الأرض من الإشعاعات المميتة.

هناك أنواع من السّحب الكونية تدعى بالسّحب البلازمية و هي تجوب الكون وتقدر الطاقة التي تحملها بما يعادل ١٠٠ مليار ضعف للطّاقة التي تولدها قنبلة ذرية كالتي ألقيت على هيروشيما، وتستهدف الأشعة الكونية الشديدة جداً الأرض أيضاً بين الحين والآخر، إلاّ أن هذه الأخطار لا تستطيع اختراق المجال المغناطيسي للأرض إلا بمقدار واحد بالألف فقط. وهذا الجزء الضئيل يتمّ امتصاصه من قبل الغلاف الجوّي. إنّ توليد هذا المجال المغناطيسي يتم عبر استهلاك طاقة كهربائية تقدر بمليار أمبير وهذا الرقم يعادل تقريباً مجموع الطاقة الكهربائية التي ولدها الإنسان عبر التاريخ، ولو لم يكن هذا الحزام المغناطيسي الواقي موجوداً لكانت الأرض عرضة للإشعاعات الكونية المميتة وربما لم تكن هناك إمكانية كي

تنشأ الحياة على هذا الكوكب أصلاً، ولكن كما يقول العالمان بريس وسيفر إنّ مركز الأرض هو تماماً حسب ما يجب أن يكون بالضبط. وهذا هو ما حفظ الأرض وصانها.

يتحدث العلماء في علم طبقات الأرض عن حرارة اليابسة والمعايير المدهشة التي تنظّمها، ذلك أنّ الحياة ممكنة في حدود معينة وضيقة جدّاً بحيث يوجد تناسب بين الحياة وبين حرارة الأرض، والحرارة هذه تكون محصورة بحدود ١٪ من الخطّ الحراري الممتد من الصفر المطلق حتى درجة حرارة الشمس وحرارة الأرض موجودة ضمن هذه الحدود الضيقة. إنّ الحدود الضيقة للحرارة لا يمكن المحافظة عليها إلا بوجود الأرض على بعدها الحالي المعروف عن الشّمس وكذلك تعتمد على كمّية الطاقة الحرارية التي تشعها الشمس. ووفق الحسابات العلمية فإنّ أيّ انخفاض في هذه الطاقة الحرارية الشمسية ولو بنسبة ١٠٪ يؤدي إلى تكون طبقات جليدية تغطي سطح الأرض وعلى سمك عدة أمتار، أمّا إذا حدث أي ارتفاع فهذا يؤدي إلى احتراق جميع الكائنات الحية وموتها.

إنّ من المهم أيضاً أن يتم توزيع هذه الحرارة المناسبة للأرض بشكل متوازن داخل كوكب الأرض. وهذا التوازن يتوقف

على عدة عوامل منها ميل محـور لأرض بـ٢٣ درجـة و٢٧ دقيقـة، وهذا يؤدي إلى ضبط التفاوت الحراري فـي الغـلاف الجـوي بـين منطقة خط الاستواء وبين القطبين، وتتم الحيلولة دون ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً. ولو لـم يوجـد هـذا الميـل لمحـور الأرض لكان الفرق بين درجة حـرارة خـط الاسـتواء وبـين درجـة حـرارة القطبين كبيراً جداً ولاستحال وجود غـلاف جـوي مسـاعد لنشـوء الحياة على هذا الكوكب.

وهنـاك عامـل آخـر وهـو دوران الأرض حـول محورهـا بسـرعة معينـة. فهـذا الـدوران مـن العوامـل المـؤثرة علـى التـوازن الحراريّ. فالأرض تكمل دورة واحدة حول محورها كل ٢٤ ساعة وينتج عن هذا الدّوران اللّيل والنّهـار، ولكـون الـدّوران المحـوري للأرض سريعاً إلى حدّ ما فإنّ اللّيل والنّهار يكون قصيراً، لذا يكون التفاوت الحراري بين الليل والنهار قليلاً.

ويمكن استيعاب هذه الحقيقة العلميـة بـإجراء مقارنـة مـع كوكب عطارد فهذا الكوكب يتميز بأنّ يومه أطول من سنته أي أنّ فترة دورانه حول محوره أطول من فترة إكماله لـدورة واحـدة فـي مداره حول الشمس، وينتج من هذا البطء الشّـديد تفـاوت شـديد جداً في الحرارة بين الليل والنهار يصل إلى ألف درجة مئوية.

كذلك يتوقف التوازن الحراري للأرض على التضاريس الموجودة على سطحها، فهناك فرق في الحرارة بين خطّ الاستواء وبين القطبين يصل إلى حد ١٠٠درجة مئوية.

ولو كان سطح الأرض مستوياً دون أية انحناءات أو ارتفاعات بين المناطق الاستوائية والقطبية فإن هذا الفرق الحراري بينهما كان سيؤدي حتماً إلى هبوب زوابع هائلة تصل سرعتها إلى ألف كم في الساعة. ولكن الذي يحدث في الواقع أن الزوابع التي تحدث نتيجة هذا الفرق الحراري يكبح جماحها من قبل السلاسل الجبلية الموجودة في مختلف أنحاء اليابسة كالهمالايا في الصّين وسلسلة جبال طوروس في تركيا وجبال الآلب في أوروبا وتستمر هذه السلاسل حتى تلتقي بالمحيط الأطلسي غربا وبالمحيط الهادي شرقاً. أمّا المحيطات فإنّها تلعب دوراً حاسماً في امتصاص الحرارة الزائدة في المنطقة الاستوائية وتوازنها عن طريق نقلها شمالاً وجنوباً.

أمّا الغلاف الجوي فإنه يحتوي على آليات طبيعية في الحفاظ على التوازن الحراري، فعلى سبيل المثال إذا زادت الحرارة في منطقة ما تزداد عملية التبخر وبالتالي تتكون السّحب، وهذه السّحب تقوم بعكس جزء من الأشعة الحرارية القادمة من الشمس

مؤدية إلى عدم السّخونة الزائدة للهواء الذي تحتها فضلاً عن اليابسة.

إذن فعوامل مثل بعد الأرض عن الشّمس و دورانها حول محورها بسرعة معينة وميل هذا المحور بدرجة معينة ووجود تضاريس مختلفة الشكل تغطي سطح الأرض كلّها تؤثر بصورة مستقلة على التوازن الحراري للأرض وعلى ثبات الحدود المعينة للحرارة والملائمة لحياة الإنسان[1].

الحكمة في الخلق تدل على الغاية:

إن مجرد النظر في انتظام الخلق والكون والقوانين التي يجري عليها، كل هذا يدلل على كونه يجري لغاية فيه وينتظم لأجل هدف سام، فالذي أحكم خلقه أحكم غايته؛ فالخلق المتقن والصنع الحكيم يدلل على سمو الغاية، فالنظام الدقيق يدلل على حكمة الصانع، وحكمته تدلل على كون غايته من الخلق رفيعة وسامية.

---

(١) لو كانت هناك مناقشات لبعض المعلومات العلمية التي وردت فإنه لا خلاف ولا إشكال فيها كلّها بالتأكيد، وأنها تدلنا على النتيجة التي نريدها منها.

ولهذا نجد أن الله تعالى جعل الإنسان محور هذا الكون ومحور الخلق ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠]؛ فتناثر الكون وصياغته وتصميمه والثوابت التي فيه أُخذ فيها تناسب العيش للإنسان وليأخذ فاعليته واستقراره في الكون، وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم بالتسخير، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ١٣]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢].

(إن حال من يُعرض عن التفكير في غايته كحال رجل ركب مع سائق سيارة أجرة ولم يتفق معه على الوجهة المطلوبة، وحين سأله صاحب سيارة الأجرة: أين تريد؟ قال له: انطلق فقط، وأينما سارت بك السيَّارة سرنا!. حقاً إن «هؤلاء الذين لا يتساءلون عن صدفة وجودهم يعانون من نقص عقلي»[(١)])[(٢)].

---

(١) نقلاً عن جيم هولت، في حديث له على منصة (TED) بعنوان: (لماذا الكون موجود؟).

(٢) الغائية والتوحيد، إعداد: عمار الأركاني، بحث منشور على الإنترنت.

الفصل الثالث

الأدلة العقلية

مناقشة المذاهب المادية حول غاية الخلق

توطئة حول المذهب المادي وأصالة الحس:

نطرح الآن رؤية المعترضين على هدفية الخلق والغاية من الحياة من زاوية ما يسمى بـ (أصالة الحس) ضمن إطار المذهب المادي الذي يقول أنه لا وجود إلا للمادة، ومن الواضح بناء على هذا الكلام أنه لا مجال بعد هذا لتحري هدف وغاية من الوجود خارج عالم المادة، وتنحصر الأهداف الوجودية في هذا الإطار المحدود للغاية، ولا تعرب التطلعات نحو هدف بشري سام، ويفتح الباب على مصراعيه نحو أهداف تقصر نظرها على الحواس فقط، من قبيل السعي إلى إشباع الحياة الإحساسية أو اعتماد مذهب اللذائذ الذي يرى أن القيمة الكبرى للمتعة واللذائذ الحسية.

وكذلك المدرسة العبثية والتي تدّعي أن الإنسان ضائع لم يعد لأفكاره مضمون ولا معنى لحياته، بسبب سيطرة الآلة الصناعية عليه فأصبح خادماً لها لا معنى له. فمجهودات الإنسان لإدراك معنى الكون دائماً ما تنتهي بالفشل الحتمي (وهي لذلك عبثية) ذلك لأنه يسخر من المنطق العلمي أو الحِكمي ولا يحترم قواعده!. فالعبث بهذا المعنى يسري حتى للعبث بالمنطق والعلم ويسخر من العقل وكأنه تمرد مجنون لا حدّ له.

وكذلك العدمية والتي حينما لم ترَ للإنسان إلا الوجود

المادي قالوا بأن الإنسان عديم القيمة وخال من أي معنى أو مضمون. فإشباع الحياة المادية وتحقيق كل مبتغاها لم يرد بالنفع بشيء ولهذا هم ينكرون معنى للحياة أو هدف للخلق.

ويسجّل ويل ديورانت حقيقة مهمة نحن بصددها في هذا الكتاب، ذلك أن الفراغ الموجود في الغرب هو فراغ في الأهداف والمثل بالدرجة الأولى، فالفراغ هو من جهة المقاصد والغايات للأهداف والمثل، ذلك الفراغ الذي يؤدي الى اللاهدفية والعدمية[1].

طبعاً توجد مدارس في قبال هذه الأقوال تؤمن بهدفية الكون والحياة كالمدرسة الغائية، وهناك في داخل بعض المدارس أقوال متعددة حول الغاية من الحياة والغاية من الخلق.

إن الغائية والهدفية تنفي الصدفة، فمن يؤمن بالصدفة فإنه يؤمن باللاهدفية واللاغائية تبعاً. أما الذي يؤمن بالهدفية وأن الوجود لم يخلق صدفة بل من تصميم وابداع دقيق فإنه يؤمن بالغائية كنتيجة حتمية.

وعليه فإن الإيمان بحكمة خلق الكون تستدعينا للقول بالغاية

(١) الدين والحداثة، أبو الفضل ساجدي: ص١٥٨.

من خلق الكون والغاية التي ينتهي اليها الكون.

ولذلك تجد من يسقط الهدفية لئلا يلتزم بحكمة الخلق للملازمة بين القول بحكمة الخلق والهدف من الخلق والغاية منه.

أصالة الحس: **الدور والنقد**:

إن هذه التفرعات عن المذهب المادي تميل إلى أن الأشياء تُكتشف بالحس، وفي زعمه أن كل الأشياء وكل العلم الذي يؤبه له مصدره الحس فقط. وهذا ما يعرف بأصالة التجربة أو أصالة الحس؛ بمعنى أن العلم نأخذه من التجربة ومن الحواس.

يقول المادي: لا تأتني بدليل عقلي محض إذ لا يعتمد مثل هذا الدليل على الحس بوصفه العامل الأساسي في الاستدلال.

إن أصالة الحس والتجربة أدت بشكل تلقائي إلى أصالة المادة. هذا هو المذهب المادي، المذهب الذي يقول بأصالة المادة بمعنى أن الوجود برمته ليس سوى العالم المادي ولا يوجد شيء وراءه.

ومن الطبيعي لمثل هذه الرؤية المحدودة للغاية أن ترتب على نفسها بأنه لا توجد غاية من الخلق.

وضمن هذا الإطار ظهرت العدمية. العدمية تقول بأن الحياة

لا معنى لها، علاوة على أن الحياة لا معنى لها، فحتى المادة لا معنى لها. وهذا انحدار يفوق حتى المادية العاديّة التي تقول أن كل الغاية وكل المطمح هو الوصول إلى عالم المادة. ولذلك فالعلمانية اليوم، بأسسها الفلسفية طبعاً، والتي هي جوهر التنظيم المادي وجوهر النظرية المادية.. العلمانية تؤسس مبناها على الدنيوية. يقولون: نحن نريد أن نبني عالم الدنيا ولا علاقة لنا بعالم الآخرة؛ لأن الحس قادنا إلى ذلك، والتجربة هي التي قادتنا ولا يوجد دليل غير التجربة.

عندما اندلعت المشاكل في الغرب مع الكنيسة، وقامت الحروب الدموية، وقتل آلاف الناس باسم الدين. وعندما حدثت كل تلك الفظائع، كان من الطبيعي أن يهيج رد فعل الناس ضد الكنيسة والدين.

لقد ترسخ السخط في نفوس الجماهير والسخط ضد الرهبان الذين كانوا يبيعون صكوك الغفران للمقاتلين والمجرمين، ويأخذون أموال الناس بغير حق، وضد محاكم التفتيش التي ارتكبت مجازر دموية كبيرة جدّاً أبان تلك الفترة، رافعة لواء الرب ونصرته. فانفجر رد الفعل وتطور برفض رجال الكنيسة، وبعدها برفض المسيحية، وبعدها برفض الدين كلّه.

فإذا سألتهم: من الذي يتصدى بدل الدين للإجابة عن أسئلة الحياة؟ أجابوا: العلم هو الذي يجيبنا. والمشكلة أن الحق معهم بشكل جزئي فقط. نعم العلم ضروري للحياة وللإنسان، ولكن حصر الرؤية الكونية به يكون بحد ذاته إجحافاً بحق العلم والمعرفة والحقيقة؛ لأن العلم الذي يقصدون إذا أجابنا عن أسئلة معينة، فهل في طاقته أن يجيب عن الأسئلة القيمية مثلاً، أسئلة الأخلاق المتعلقة بالخير والشر وما ينبغي وما لا ينبغي؟ خذ مثلاً، إذا انطلق صاروخ من اسرائيل ووقع على لبنان، فهل في مقدرة فيزياء الصواريخ وكيمياء التفاعلات الكيميائية للصواريخ، وإلكترونيات الأقمار الصناعية، وغيرها من العلوم التجريبية المبنية على الحس، هل باستطاعتها أن تجيبك عن السؤال التالي:

ها هنا جانبان، الأول أطلق الصاروخ والثاني وقع عليه الصاروخ، فأي جانب منهما مع الحق، وأي جانب مع الباطل؟

هل باستطاعة العلم أن يجيب عن مسألة قيمية واحدة؟ هل باستطاعته أن يقول من الحق ومن الباطل (اسرائيل أم لبنان؟) قالوا: لا يستطيع.

إذن بمقدرة العلم أن يحدد الجهات الوضعية من هذه المسألة، بإمكانه أن يحدد مسار الصاروخ وأن يشحنه بوقوده ويتنبأ

بنقطة سقوطه... إلخ.

لكن جوهر الإنسان والوعي الإنساني لا يتحدد بالجهات الوضعية من المعرفة؛ إذ توجد هناك الحياة المعنوية التي تجعل الإنسان إنساناً، وليس مجرد وحش أو صخر أصم أو آلة تعمل بشكل أوتوماتيكي بارد.

لعل العلم يكفي كائنات تحاكي الروبوتات في سلوكياتها المحددة بالفعل ورد الفعل الروتينيين الجامدين الخاليين من الحياة، لكن العلم بحد ذاته لن يكفي لحياة إنسانية مفعمة بالحيوية الروحية والإدراك الإحساسي العميق.

إذن من الذي يجيب عن مثل هذا؟ وفي خضم التخبط في هذه المفارقة قالوا: نحصّل النشاط القيمي في مجتمعنا بواسطة تحكيم المصلحة واعتبارها معيار قيمة الأفعال. وهو ما يعرف بـ (البراجماتية) أو (المصلحية). فقالوا: ما كان فيه مصلحة نعتبره الخير، وما تكن فيه نعتبره الشر. فالخير والشر يدوران مدار المنافع والمصالح إذن.

ومن معرفة هذه الفلسفة ضيقة النظر يكون مفهوماً كل التناقض الذي تسير به السياسة الغربية. فترى يوماً أن الموقف يعتبرك الصديق والمقرب، وفي اللحظة اللاحقة يصرح الموقف

بأنك إرهابي مجرم. وهكذا نفهم لماذا أن بلداً تُعتبر في الموقف العام أنها بلد دعاة السلام. وفي لحظة تقاطع المصالح تتحول من سمتها الخيرة إلى وصمة الإرهاب. هذه السرعة مفهومة؛ لأن المصلحة هي التي تجيب وليس ثمة معايير ثابتة وأصول قيمية راسخة.

لقد بحثوا هذه المسألة: كيف يجيب العلم عن الأسئلة؟ ثم افترضوا بشكل موجه إيديولوجياً هذا الجواب: إنما يجيب بالحواس، بالتجربة فقط. ولذلك فلا وجود لعالم ما وراء المادة الذي هو عالم الغيب والميتافيزيقيا. وتفرع عن هذا المذاهب الرئيسية والفلسفات المعاصرة.

إنهم يريدون أن يؤصّلوا لاشتغالات جزئية، ومعنى ذلك أن هذه العلوم لا تستطيع إلا أن تؤصل الحس والمختبريات في انتاج نموذجها؛ لأنها تعتمد على العلم التجريبي ليجيبها عن نموذجها الدنيوي الذي تؤصله، ولا تسمح لغير العلم المختبري والعلم الحسّي أن يجيب عن اشتغالات الإنسان أو نموذجه، ولكنّ الحقيقة أن الحس لا يؤهلها إلا لتقديم نموذج جزئي؛ فالحس لا يستطيع إدراك ما هو كلّي وعقلي، ومثله المختبر لا يستطيع أن يؤسس هوية كلية، بل اشتغاله لا يتعدّى المختبر والأشياء الجزئية.

فهي تسعى لتأسيس هوية دنيوية ومعالجات لحال الإنسان بغض النظر عما وراء ذلك، أي ما وراء الماديات، فهي تؤصل للاشتغال بالحياة الدنيوية، والواقع المعاش، والجزئيات، والبحث عن لقمة العيش، والترفيه، وقضاء وقت الصيف على الشاطئ، وفي المطاعم، والعمل، والمختبر، و...

أي أنها تؤصل لإلغاء القيمة الغائية أو العلة الغائية التي يريد الإنسان أن يصل اليها. وبتعبير البعض أن الإسلام باستطاعته الإجابة عن الأسئلة القصوى في الحياة، فمن الممكن أن ينشغل الغربي ببعض التكنولوجيا أو اللهو في السينما والمطاعم، ولكنّه لن يجد الإجابة عن الأسئلة الكبرى في حياته، والتي لا يستطيع غير الإسلام أن يجيب عنها، هذه الأسئلة التي تصيغها بعض الأحاديث الشريفة: «من أين وفي أين والى أين». فالإسلام اليوم هو الوحيد الذي يقدّم الإجابة عن الأسئلة الكبرى في حياة الإنسان في الوقت الذي تعيش الحضارات الأخرى أزمة الأشياء أو الإنسان الشيء.

وبتعبير آخر: إن الغرب والعلمانية والمادية في الغرب لا تؤصل لفهم الغائيات وأنه لماذا خُلقنا والى أين نحن سائرون؟ إنها تريد أن تعرّف كيف نسير فقط.

فهي لا تملك نظرة نحو العالم والوجود والإنسان والأخلاق

والضمير والإجابات الغائية عن كل ذلك، إنها فقط تقول: الأرض تسير ونحن موجودون الآن، وكيف تسير هذه الأشياء لا من يسيّر هذه الأشياء، إنها تكشف الغموض عن القوانين التي تحكم الكون لا من خلق هذه القوانين، ولا معنى لكل سؤال بنظر العلمانية والمادية عمّا وراء عمل هذه القوانين.

إذن فالمعلومات والمكتشفات لا تقدّم للإنسان إلا صورة جزئية عن ذلك الشيء المكتشف بعيداً عن الإقناع بنظرة كلية للكون والحياة وبعيداً عن الضمير وبعيداً عن الروح التي تريد أن تشعر بالجمال، وبعيداً عن الله سبحانه الذي يصرّ الإسلام على أنه لا سعادة إلا بذكره وتقواه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

إن مسألة انفلات العلم التكنولوجي والمختبري من عقال الدين والغائيات يعني بالنتيجة انفلاته من عقال المعنويات ومن عقال الضمير ومن عقال الحساب والعقاب الاخرويين، وبالنتيجة فإن هذا الانفلات صاغ حياة الإنسان الغربي بعيداً عن غائيات الوجود وبعيداً عن القداسة، وولدت تبعاً لذلك العبثية واللهو والدنيوية.

إن سؤال الغائية يتيح للمعرفة سؤال لماذا تصنع، بينما سؤال العلم وحده يتيح لك فقط سؤال كيف تصنع.

مما يعني أن الأول (لماذا تصنع) يريد أن يحددك ويفرض عليك السؤال الحساس، وهو: لماذا تصنع، هل للإنسانية أو للحروب أو للمتع واللهو أو لأجل المال والجاه، الخ. بينما الثاني (أي كيف تصنع) لا يتيح لنفسه مثل هذا السؤال.

إن الكثير من الدعوات اليوم للمادية والعلمانية إنما هي لركوب موجة السيطرة على المجتمع التكنولوجي وعدم فسح الخيارات أمام تساؤلات أخلاقية أو قيمية من قبل أولئك الذين يملكون غايات غير نبيلة ويحاولون تجيير الإنسان والتكنولوجيا باتجاه رغباتهم. فكل الدعوات اليوم من قبل عقلاء البشر في السيطرة على غلواء التكنولوجيا والعلوم وانتشار الأسلحة وصناعة المدمرات والترسانات الهائلة لا تلاقي ترحيباً من قبل بعض المستفيدين من عدم أخلاقية العلوم أو توجيه بنى العلم وجذوره بالغايات الدينية والقيمية.

ولذلك يظهر من كلمات كل من فوكو ونيتشه، حيث ذهبا الى اختفاء طلب السيطرة خلف المظهر الخادع للمجتمع العصري[١].

(١) انظر: العلمانية والعصرانية: ص ٢٠.

ثمن العقلانية المادية: مقارنة بالنظرة الإسلامية:

عندنا نتأمل في العقلانية والتي تريد أن تقود النظام العلماني ومن ثم البشرية الى الحياة المادية والى الدنيوة (الدنيوية) والى الإمعان في تشييد العالم المادي من غير أن تعتني بالعالم المعنوي وما وراء الماديات والى الضمير والقيميات. عندما نتأمل في كل ذلك سنلاحظ المساوئ الكبيرة التي من الممكن أن يجرّها التدشين لعالم الدنيا بمعزل عن الإيمان أو الحساب الضميري والقيمي، ولذلك فإن الإسلام يتعاطى مع الدنيا على أنها باب للآخرة لا على أنها مفصولة عنها، وهذا مهم، لأن الارهاق المادي سيودي بالإنسان لحياة كدح مريرة لا تشعر معها بأية روح أو معنى أو سعادة، بل سيكون التنافس السلبي والتنازع والتباهي والمرارة والحاجة الدائمة للمال والماديات من غير قناعة بالممكن، كل هذا سيكون ثمنه الإنسان وعمره وطاقته، وسيشكّل جهداً في الذهن وتكبيلاً للسعادة التي نرومها.

ويقول ريتشارد رايان: «في رحلة الحياة، ينتهي الماديون بحمل الأثقال الإضافية على عاتقهم والتي تمدد بدورها الطاقة الضرورية للعيش، والحب، والتعلم... ورغم أن المادية تعد بالسعادة

إلا أنها بالفعل تخلق إجهاداً وإرهاقاً»[١].

لقد بيّن الإسلام في مجموعة تعاليمه على أهمية الدنيا في الوصول الى الآخرة، وعن النبي صلى الله عليه وآله: «الدنيا مزرعة الآخرة»[٢]. لا أن يحدث الميعان فيها الى حد أن لا يرى الإنسان سواها وبالنتيجة تجرّه الى ظلم نفسه وظلم غيره، أو أن يكسب بها التعدي على العباد أو التعالي والكفر بالله تعالى، فيكون من ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧-٨].

ويتحدث تيم كاسر عن حقيقة قول النبي صلى الله عليه وآله: «ليس الغنى عن كثرة العرض –أي المتاع– ولكنّ الغنى غنى النفس»[٣]، ويشير الى أن هذا الحديث النبوي تؤيده العديد من المعطيات العلمية، فالحياة المادية تركّز على تحصيل المال واكتساب الشهرة وهي حياة فاقدة للمعنى... إن القيم المادية تتماشى مع المستوى المتدني لجودة الحياة والصحة النفسية، كما أن إشباع الحاجات للسلامة والأمن والتواصل مع الآخرين والاستقلالية، وغيرها، لا تتم

(١) الثمن الباهظ للمادية، تيم كاسر: ص١١، بتصرف يسير.

(٢) عوالي اللآلي: ج١ ص٢٦٧.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال: ج٣ ص٤٠٤ ح٧١٥٩.

بالمستوى المطلوب عندما تكون القيم المادية مورد الاهتمام الأساسي في النظام القيمي للناس... إن القيم المادية تقوّض جودة حياتنا»[1].

ويقول أيضاً: لقد «أكّد الحكماء من كل خلفية دينية أو فلسفية تقريباً في أن التركيز على اقتناء الممتلكات المادية، والشهرة الاجتماعية، يصرف عن كل ما له معنى في الحياة»[2].

إن جزءاً مهماً من المسببات في اتباع المادية هو في تخريب المفاهيم الإنسانية الواضحة التي اجترحتها البشرية والذهن البشري منذ بداية الخليقة، وهذا التخريب تمحور بين رفض الاستدلال العقلي كأساس للاستنتاج والاكتفاء بالتجربة، ومن ثم في ردود الفعل تجاه التسلط الكنسي على الإنسان الأوربي مما جعله ينفلت من عقال الدعوات الى المعنوية والتكامل بين النظرة للدنيا والآخرة، وآخرها هو إعمال التشكيك في المفاهيم الأساسية والبديهية والتي انتهجها العديد من الأوربيين والتي قادت للتشكيك بكل شيء مما أتاح لفوضى عارمة على مستوى المفاهيم البديهية

(١) الثمن الباهظ للمادية: ص ١٦٠.

(٢) السابق: ص١٨.

أو القضايا البديهية الواضحة التي يؤمن بها الإنسان. وبالنتيجة قادت هذه الفوضى لتبرير الشهوات وإباحة المحرمات ومسايرة المادة في كل شيء.

وفي مقابل المادية والدنيوة يطرح الإسلام تربية الإنسان على عدم سيطرة الميول المادية لديه، فالإنسان بحكم طبيعته التي تشتمل على بعدين، مادي وغير مادي، فتأخذ التربية الإسلامية عبر الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام في عقل الإنسان وضميره وروحه لتأطر له علاقاته الشرعية والأخلاقية في الإطار المشروع وهو تكامل الدنيا بالآخرة وتكون الدنيا مزرعة للآخرة، لا أن يعيش جانب الرهبانية والانعزال والانكفاء على الجانب المعنوي الذي يفقده ماديته وبشريته بحكم كونه كائناً فاعلاً في الحياة ويطلب إعمار الحياة ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ [هود : ٦١]، ولا أن يطغى الجانب المادي لديه ويفقد روحه وضميره وما يحمله من بعد غير مادي يشتمل على أساس الطمأنينة والسعادة لديه.

فالميزة الاساسية للنظام الإسلامي تتمثل: فيما يرتكز عليه من فهم معنوي للحياة وإحساس خلقي بها، والخط العريض في هذا النظام هو: اعتبار الفرد والمجتمع معاً، وتأمين الحياة الفردية والاجتماعية بشكل متوازن. فليس الفرد هو القاعدة المركزية في

التشريع والحكم، وليس الكائن الاجتماعي الكبير هو الشيء الوحيد الذي تنظر اليه الدولة وتشرع لحسابه. وكل نظام اجتماعي لا ينبثق عن ذلك الفهم والإحساس فهو إما نظام يجري مع الفرد في نزعته الذاتية، فتتعرض الحياة الاجتماعية لأقسى المضاعفات واشد الأخطار. وإما نظام يحبس في الفرد نزعته ويشل فيه طبيعته لوقاية المجتمع ومصالحه. فينشأ الكفاح المرير الدائم بين النظام وتشريعاته والأفراد ونزعاتهم بل يتعرض الوجود الاجتماعي للنظام دائماً للانتكاس على يد منشئيه ما دام هؤلاء يحملون نزعات فردية أيضاً، وما دامت هذه النزعات تجد لها ـ بكبت النزعات الفردية الأخرى وتسلم القيادة الحاسمة ـ مجالاً واسعاً وميداناً لا نظير له للانطلاق والاستغلال[١].

إن فقدان الهدوء النفسي والشعور بالقناعة، وإرضاء الضمير، والسعادة، كل ذلك لا يتأتّى عبر التنافس المادي، لأن اللهاث خلف المال يولّد الشره الذي لا يمتلئ أبداً، ويجعل الإنسان في عدم راحة وعدم طمأنينة دائمين.

(١) فلسفتنا، الشهيد الصدر الأول: ص٥٨.

إن خسارة الجانب الجمالي والروحي وغير المادي في الإنسان يتبعه أن يتحول الإنسان الى قدرة تدر المال فقط، أو قدرة صناعية تحاول السيطرة على الاجتماع البشري. وستنعدم حينئذ النظرات الجمالية والروحية والمعنوية الخلاّقة، وسنخسر الإنسان المتعدد الجوانب ونحل بديله وهو المادة والمال ليعوض عن ذلك التنوع في الأبعاد.

وبالنظر لمحدودية الموارد المادية فإن الفائز فيها سيكون للغالب والتنافس بين الأقوياء هو الذي يحكم الحياة المادية.

هذا بالإضافة الى تحويل الواقع والذي يزخر بالمعاني غير المادية، واللذائذ غير المادية، كلذة العبادة ومساعدة الآخرين، وحب الخير للبشرية، ولذة اليقين والحقيقة، والحب والعاطفة، فيتحول الواقع الزاخر بكل ذلك الى واقع مادي نفعي يمقت هذه المشاعر والحقائق ويهدرها. وبالنتيجة فثمن ذلك كله هو الإنسان الظمآن من كل تلك القيم النبيلة والأحاسيس الجميلة، ولا يجد من ينقذه غير ما يزيد الطين بلة عليه، وذلك بأن تجيب المادة عن ذلك وتعوضه بالاكتئاب وخسران الصحة النفسية والكدر والضيق. وفي الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٥-١٢٦].

نقض المبنى الحسي:

إن نقض المذهب الحسي والتجريبي يودي بنا الى القول باشتمال العالم على المادي والحسي معاً وبالتالي إثبات غائية الخلق، فنحن نتفق مع المادي في نقطة ونفترق معه في أخرى، فهو يثبت الغائية ولكن لعالم الحس والمادة، وينكر عالم ما وراء المادة والتالي ينكر الغاية التي يشتمل عليها، فلثبوت المادة لديه وحسب كانت الغاية مادية وحسب، ولو كان غير المادي موجوداً لثبتت له الغاية أيضاً بحسب المبنى نفسه.

ونحن هنا نحاول التدشين لاثنين: نقض المذهب التجريبي ويبطل معه بالتبع الغاية المادية للخلق، ومن ثم اثبات العالم ما وراء المادي لتثبت له غاية الخلق بحسب ما تقدّم من إثبات حكمة الصانع وتنزهه عن العبث وكفاية ذلك بالتدليل على غاية الخلق.

وكان أول نقض يتوجه إلى المبنى المادي هو تحكيم معياره على أصالة الحس والتجربة نفسها. بعبارة أخرى: هذا الزعم

الذي يقول بأصالة المادة، من أين استمد مبرراته العلمية؟ إنه لم يستمده من التجربة والحس طبعاً إذ لا معنى لمثل هذا الفرض، فهل هذا يعني إلا أمراً واحداً: وهو الاعتراف بعدم أصالة المادة على الأقل في تأسيس مباني هذا المبنى، وبالتالي فالمبنى برمته يكون قائماً على ما يناقضه. فقد تبين بهذا أن هذا المبنى يلغي ذاته بذاته.

ثم إن التجربة على وجه الدقة لا تستطيع إلا أن تثبت الظواهر الطبيعية الحسية فقط، وإثبات الشيء لا ينفي ما عداه. إن تمكنت التجربة من إثبات حادثة ما، فإنما هي تثبت تلك الحادثة المخصوصة ولا تثبت ما عداها، والأهم من هذا أنها أيضاً لا تنفي ما عداها. لا يذهب العلم إلى ما وراء المادة ليرى ويفحص ثم يعود فيخبرنا أنه لا يوجد شيء هناك. ليس في طاقة العلم هذا. فيا أيها الإنسان يا صاحب أصالة التجربة، إن نفي الشيء (الميتافيزيقيا) معلومة تحتاج إلى دليل، وبما أن دليلك هو التجربة فقط، فبأي تجربة تنفي عدم وجود ميتافيزيقيا وغيب في الوجود؟ وهل إن قولك (لا علم إلا بالتجربة) نابع من تجربة أجريتها على التجربة وعلى كل ما عداها، لتثبت أن التجربة فقط، بواسطة التجربة، قد ثبت أنها العنصر الوحيد في الاستدلال الذي يفيد علماً؟

فلنترقى أكثر من هذا ولننبه الى أن التجربة لا تثبت إلا خصوص مواردها الجزئية. مثلاً مغناطيس مشخص يجذب برادة من الحديد، هذه تجربة، وكل ما فيها من قيمة علمية تتعلق بخصوص موارد إجرائها، وعليه فمن أين نكتسب الحق في تعميم نتائجها على جميع الموارد التي لم تجرى فيها؟.

القوانين العلمية لا تنشأ من التجارب بل تنشأ من استفادة العمومية منها. العمومية تقدم لنا القانون، فتقول مثلاً المغناطيس – بمعنى: كل المغناطيس أي طبيعة المغناطيس– يجذب الحديد، كل الحديد. هنا نسأل: من أين أتيت بهذا القانون، فالتجربة لا تعطي العمومية وإنما تقدم ما يصلح للوصف الجزئي فقط؟ كرر التجربة ألف مرة فلن تحصل منها على مبررات كاشفة عن اشتمال التجربة رقم ألف وواحد على نفس النتيجة، ما لم تقدم على إجراء التجربة ألف وواحد فعلياً. وهكذا فلا تستطيع أن تعمم التجربة على كل حديد العالم وكل مغناطيس العالم.

القانون حكم عقلي خارج التجربة، وفي هذا الكفاية للنقض على من يقول بأصالة الحس والاقتصار على المعرفة التجريبية المحضة. لا مندوحة من الرضوخ إلى أن التعميم الفلسفي لأنه لا غنى عنه من أجل ولادة القانون العلمي.

فقد تبين الرد حينما يقول قائلهم أن لا شيء في الوجود سوى المادة. فيقال له بأن مساوقة الوجود للمادة ومساوقة العلم للتجربة، إنما هو زعم لا ينهض به دليل ولا يقبله العقل؛ فأولاً: التجربة لا تكتشف إلا الظواهر الطبيعية التي أمامها ولا تقدر على إثبات أو نفي ما عداها، وثانياً: لا نستطيع أن نعمم القانون بالاعتماد على التجربة فقط، وثالثاً: أنت أصلاً مقولتك ليست تجريبية، بل عقلية.

مناقشة أخرى نوردها على المذهب التجريبي، فعلاوة على كون التجربة ليس في طاقتها إنكار الغيب، نترقى أيضاً فنقول: إن التجربة تُثبت الغيب.

فمن المؤكد أنه هنالك ظواهر تمر بها البشرية وتحتاج إلى تفسير شاف لا تسده الرؤية المادية بشكل مقنع، كما في تجربة الكثير من الأحلام الصادقة، وأحلام اليقظة، واللاشعور من المكبوتات بتعبير فرويد، وطفرة الرغبات في وعي الإنسان عبر الأحلام. فرويد كان يقول بأن الاحلام هي عبارة عن مكبوتات الإنسان تظهر لديه في الحلم. ولعل بالإمكان أن نقول من وجهة نظر إسلامية: بأنه علاوة على المكبوتات يوجد المزيد أيضاً مما تعرب الأحلام عن اختزانه في اللاوعي. ما يسمى بالحلم الصادق؛

بمعنى أن كثير من الأحلام نلاحظ تحقق مضمونها على أرض الواقع. وهي تجربة قد مر بها الكثير من البشر بلا مراء. ولاحظ معي الظاهرة التالية: أنت تعيش في حياة بحدود معينة، ربما نمت لخمس دقائق، فتعيش في نومتك تلك حلم ساعة، وكأنّك انتقلت إلى حياة أخرى بحدود مختلفة ومقاييس من نوع آخر. قد تجهد العلوم المادية في تقديم تفسيرات مختلفة لمثل هذه التجارب الحية، ولكن تفسيراتهم لن تسلم من التعقيد والالتفاف والتمحل، بعكس الرؤية الميتافيزيقية التي تقدم تفسيراً في غاية البساطة. والقاعدة العرفية الدارجة علمياً التي تصدق في العديد من الموارد والتي تقول: إن التفسير الأبسط كثيراً ما يكون هو التفسير الصحيح؟.

الدكتور الفرنسي كاميل فرامانيون جمع طائفة كبيرة من تجارب الأحلام والرؤى الصادقة، ووضعها في محضر العلماء والمختصين. وكم من الناس في معيشتنا اليومية من يقول منهم: أنا عشت حلماً صادقاً؟ هذه حالة ما وراء مادية.

وفي القرآن الكريم من هذا أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[يوسف : ٤]، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ

يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف : ٤٣]، ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف : ٣٦].

براهين تجرد الروح:

نؤكد هنا ما قلناه فيما سبق من أننا ندشن لاثنين: نقض المذهب التجريبي ويبطل معه بالتبع الغاية المادية للخلق، ومن ثم اثبات العالم ما وراء المادي لتثبت له غاية الخلق بحسب ما تقدّم من إثبات حكمة الصانع وتنزهه عن العبث وكفاية ذلك بالتدليل على غاية الخلق فضلاً عن الأدلة الأخرى.

المناقشة التي نوردها على المذهب المادي بالاعتماد على الأدلة التي أثبتت تجرد الروح عن المادية أي كونها غير محكومة لمحددات الزمان والمكان، وبالتالي كونها موجود من خارج نطاق المادة. وقد ذكروا في إثبات تجردها كثيراً من البراهين، فلنأخذ بعضاً من أهمها:

البرهان الأول: هو ثبات الشخصية المعنوية للإنسان برغم التبدل المتواصل لجسده المادي. فبرغم أن الخلايا في تبدل

وتجدد، ولكن من المؤكد أن هنالك جنبة معينة في الإنسان -هي الجنبة التي يعبر عنها بكلمة (أنا)، وينسب أفعاله إليها فيقول: (كتبتُ)، (وقفتُ).. إلخ- هذه الجنبة تبقى ثابتة لا تتأثر بسائر التبدلات والتغيرات التي تطرأ على جسده[1].

فهذه الـ (أنا) التي تعد مصدراً لأفعال الإنسان ثابتة وباقية ومستمرة، ولا تعصف بها التغيرات المادية، وهذا الثبات والبقاء أمارة وعلامة على كونها جنبة مجردة.

وعلى صعيد أخلاقي فإن عدم الاعتراف بهذه الحقيقة من كون النفس مجردة والمصير الى كونها مادية لا يبقي مجالاً لتحميل الإنسان مسؤولية أفعاله. سيكون مشروعاً للمتهم الجاني أن يأتي إلى المحكمة أمام القاضي ويقول: لست أنا من اقترف

(١) من الأخطاء الشائعة التي تتداول كثيراً حتى عند المختصين: الخطأ الذي يقول بأن خلايا الدماغ لا تخضع بكاملها للتبدل والتجدد. ومن السهولة التأكد من خطأ هذه المعلومة بزيارة المواقع الالكترونية التي تصححها، والتي تفيد بأن معدل الخلايا المتجددة في المخ وإن كان قليلاً نسبياً قياساً بتجدد خلايا الجسم الأخرى -٧٠٠ خلية يومياً- إلا أن منطقة الخلايا المتجددة في المخ تصل في مرحلة ما -بعد خمسين سنة من عمر الإنسان- إلى تبديل كامل الخلايا فيها إلى خلايا جديدة تماماً.

الجناية، فهذا الجسد الذي أمامك قد تبدل إلى جسد غيره ولم يعد هو نفس الجسد الذي فعلها.

إن الاعتـراف بوجـود الشخصـية التـي ينسـب إليهـا الأفعـال الذهنية والجسمية معاً هو اعتراف يشترك به كلاً من الماديين وغير الماديين. نقطة الخلاف تتجلى في أن المادي يعتمـد علـى الحـس فقـط فيقـول: أنـا لا أرى سـوى مجموعـة مـن الأفعـال والأفكـار، ومجازاً أنسب إليها الـ (أنا)، فأما على صـعيد الحقيقـة فالـ (أنـا) لا وجود للواقعية المستقلة لها وراء هذا الظاهر الحسي.

وأما المذهب الإلهي فيقول: هذه الأفعال وراءها حقيقة باطنة اسمها الـ (أنا). مقاربة المـادي هـي أن إطـلاق الـ (أنـا) علـى هـذه الأفعال والمظاهر المختلفة تكون من باب مشابه لأن نسمي شخصاً ما باسم (سعيد) في حين أنه يكون في واقعه حزيناً. نقول له: قـم يـا سعيد، وهو حزين. أي أنه اطلاق غير معتنى بمعناه بل بلفظـه فقـط. أما الإلهي فيقول: هذه ليست فقط أفعال معلقة على ظاهر سـطحي، هذه أفعال وراءهـا حقيقـة باطنـة وعميقـة اسـمها (أنـا) تُنسـب لهـا الأفعال نسبة حقيقية لا مجازاً. وهذه الحقيقة الباطنة غير قابلة للتبدل المادي، وإلا لمـا كـان مـن مشـروعية لحسـاب الإنسـان فـي عمـر الخمسين على خطأ ارتكبه في عمر العشرين.

وبعبارة أخرى: هناك موجودان، جوهر وعرض، الجوهر هو القائم بذاته، كالإنسان والحيوان والشجر، والعرض موجود قائم بغيره كالطول والسمك ونحوهما.

الروح الإنسانية جوهر تنبئ هذه الأعراض عن وجوده. إننا لا نرى صفة عرضية مثل الطول أو النحافة أو غيرها.. لا نراها قائمة بنفسها، إنها تقوم بغيرها. نحن لا نرى الطول في الشارع، بل نرى شجرة طويلة مثلاً، ولا نرى نحافة تسير في السوق بل رجلاً نحيفاً. ومن المؤكد أن هذه النشاطات والسلوكيات المختلفة التي تكشف بوضوح عن نفس باطنة تكون هي الجوهر وتكون تلك النشاطات هي أعراضها، لا ريب أن هذه النشاطات لا يعقل أن نفترض لها وجوداً استقلالياً قائماً بذاته وغير قائم بغيره. لكن الذهنية المادية العجيبة ترى أن من المعقول أن نفترض الطول قائماً بلا طويل يقوم به، والنحافة بلا نحيف تقوم به، واللون، الثقل، التحيز، الفوقية.. إلخ، باختصار: كل عرض لا يصلح لأن يقوم بذاته ويحتاج لأن يتقوم وجوده بوجود غيره، يرى المادي أن من المعقول أن يوجد مستقلاً هكذا معلقاً في الهواء الفارغ! وهذه نتيجة طبيعية يبلغها بتفكيره بعد أن ينكر كل شيء باستثناء ما يتعرف عليه بواسطة

الحواس. وهكذا جاز لنا أن ننقض عليه بالمادة نفسها. نقول له: أنت لا تؤمن إلا بالمادة، فأتنا بالمادة التي لا ترى في الوجود سواها.

سيأتيك بما تراه، بما تلمسه، بما تشمه وتذوقه وتسمع صوته. المشكلة أن هذه كلها ليست المادة. حرارة، برودة، خفّة.. إلخ، إنما هذه ظواهر للمادة، لا المادة نفسها.

مشكلتهم العظيمة هي السطحية وعدم الغوص في بواطن الحقائق. ولأنهم لا يرون الجوهر لم يصلوا إلى جوهر قائم بنفسه تنبئ الأعراض عنه بصريح البيان. نحن نقول بأن الحواس إنما تدرك العرضيات فقط، أما حقيقة المادة، فبحسب مذهب أصالة المادة، وبحسب المباني المرضية بهذا المذهب، فليس هناك موجود اسمه مادة. المادة نفسها غير مادية؛ وإلا لو كانت مادية فاعطني اياها، فإني لا أرى إلا آثارها فقط.

وبهذا البيان اتضح البرهان الأول على أن الروح مجردة ليست مادية.

وينبغي أن ننبه هنا بوضوح على أن الرؤية الإسلامية لا تنكر أهمية التجربة، كل ما هناك أنها تراها واحدة من مصادر العلوم الرئيسية، وليست المصدر الأوحد.

البرهان الثاني: وهو ما ينقل عن الشيخ الرئيس ابن سينا، ومفاده: إنه لو قدر أن وجد إنسان معلّق في الهواء فاقد لكل إحساس خارجي تماماً، ومنعدم الذاكرة، فهو لا يرى، ولا يسمع، ولا يشم، ولا يذوق، ولا يلمس، لا يشعر بحر ولا برد، ولا بنعومة ولا بخشونة، ولا بألم ولا لذة.. باختصار هذا الإنسان يعاني من اختلال كامل في الأعصاب لدرجة أنها لا تنقل إلى الدماغ أي إشارة إدراكية مستمدة مما نسميه (إحساس)..

فلنسأل هنا: هذا الإنسان ألا يكون مدركاً لنفسه برغم فقده لكل إدراك إحساسي، أم لا؟

العقل يحكم قهراً هنا أن هذا الإنسان، وإن فقد كل إدراك حسي وقابلية على الاتصال بالعالم الخارجي، بل والعالم البدني الإحساسي الخاص به أيضاً، إلا أن ثمة نوع غامض –ولكن مؤكد– من الإدراكات ستنتابه. وفي هذا الكفاية للحكم بوجود المدرك الشخصي الذي يدرك على الأقل ذاته في أعمق حالات التوحد والانفراد والتوجه إليها وإن غفل عن كل ما سواها. إنها النفس المجردة.

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا النوع من الاستدلال –المنقول عن ابن سينا منذ قرون– بات شائعاً اليوم للغاية في العلوم

الفيزيائية الحديثة، وفي أبهى وأشهر تطبيقاتها. الفيزياء تعد هذه الطريقة من الاستدلال نوعاً من الاستدلال بواسطة التجربة، ويطلقون عليها اسم (تجربة ذهنية). ولعل البعض يربط ابتكارها بالفيزيائيين المحدثين –أمثال أينشتاين وغيره– والذين وظفوها أحسن توظيف في الاستدلال والاستنتاج في بحثهم الطبيعي، فقد بات معلوماً الآن أن هذه الطريقة ليست بالغريبة عن الفكر الفلسفي الإسلامي.

فها هو ذا برهان تجريبي من نوع التجارب التي تعد أحدث المبتكرات العلمية، برهان تجريبي على تجرد النفس، قدمت صياغته منذ قرون مديدة.

البرهان الثالث: ويستند على استحالة انطباع الكبير في الصغير. فنحن إذا تأملنا في صورة الجبل مثلاً، لوجدنا أن هذا المعلم مترامي الأرجاء لا يمكن أن يسعه جرم صغير مثل الجسم الإنساني أو عضو في الجسم الإنساني. من البديهيات أن الصغير لا يسع الكبير. إننا لا ننكر دور الحاسة الباصرة هنا، ولا دور الجهاز العصبي في تحليل وتركيب الصورة الإدراكية المحسوسة بواسطة العين، فكلامنا ليس في النشاط المادي الذي تتضمنه هذه العلميات الفسيولوجية، ولا ننكر أن الصورة المُبصَرة تحتاج، لكي تتحقق

وتكتمل في الإدراك، إلى نقل الإيعازات الكهربية من العين إلى الدماغ. لكن الإيعازات الكهربية هي ليست الصورة المبصَرة حتماً؛ إنك إذا شاهدت فلماً وثائقياً على جهاز الـ(DVD)، فإنك تدرك بالبداهة أن الفلم هو غير الإشارات الكهربائية المتبادلة بين جهاز العرض وبين القرص المدمج الذي خزن الفلم فيه. وعندما تطالع كتاباً مشوقاً، فإنك تعلم أن الكلمات المرسومة على الصفحات، من زاوية كونها رسوم مخطوطة بكيفيات خاصة، هي شيء، وأن الكلمات، من زاوية كونها أفكاراً ونقاشات ومعلومات، هي شيء آخر.

إذن نشاط العين ونشاط الدماغ لا مشاحة في الحاجة إليه من أجل إدراك المبصَرات. ولكننا نتساءل هنا عن أمر آخر، نحن لا نسأل ما الذي نحتاجه من أجل تحقيق عملية الإدراك، بل نسأل: هذا الإدراك الذي ساهم الدماغ والعين في تحققه، أين تحقق وانطبع؟

ولا ريب أنه تحقق وانطبع في موجود مجرد؛ لأن صورة الجبل إذا كانت مادية والتي طولها كيلومتر واحد مثلاً كيف تنطبع في الذهن والدماغ الذي لا يعدو كونه سنتمترات معدودة، وهذا

يعني أن الصورة الإدراكية هي صورة مجردة من المادة. وهو دليل واضح على تجرد النفس المدرِكة إذن.

وربما تقول: بأن الدماغ يعمل على الصورة فيجري عليها التعديلات في الحجم بحيث تتناسب مع حجم الدماغ، فيقوم بتصغير الصورة –الكبيرة في واقعها- فيجعلها للمدرِك تتراءى وكأنها كبيرة ولكنه في الحقيقة قام بتصغيرها وإعادة أبعادها، وهكذا ندفع مشكلة استحالة انطباع الكبير في الصغير.

ولكننا نرد على هذا الكلام فنقول: ما معنى أن الدماغ يعمل على الصورة الكبيرة فيجعلها مناسبة لحجمه؟ أليس معنى هذا أن الصور في النهاية تكون كبيرة، وأن المنطِبع فيه آخراً ينبغي أن يكون على هذا كبيراً ومن ثم يقوم بتصغير الصورة؟

وبالجملة: لا مجال لهضم قابلية إدراك الأبعاد الشاسعة في عضو مادي محدود وصغير نسبياً، فهذا العضو لا يقوم بمهمة الإدراك، بل بمهمة التوسط لحصول الإدراك للمدرِك، وليس هو – أي المدرِك- إلا النفس المجردة.

البرهان الرابع: حرية الاختيار لدى الإنسان. الإنسان كائن مدرِك تتوفر أمامه خيارات عديدة في الحياة، وهو يمتلك القدرة على الموازنة والاختيار وترجيح الواحد منها دون الآخر. مثل هذا

الواقع المؤكد في حياة الإنسان لا معنى لافتراضه في حال لو كان الإنسان مجرد مادة دنيوية؛ إن الأجسام المادية الصرفة لا تسلك أي سلوك إلا بالطريقة العجماء التي تتبع الفعل ورد الفعل.

ليس البدن المادي بحسبه إلا جهازاً يتبع قوانين الأجهزة المادية —وإن كان جهازاً أعقد منها وأعلى كفاءة منها بدرجة باهرة– وهو من هذه الناحية لا يتصرف إلا على الوجه الرتيب الخالي من الإرادة، فتفرز غدده اللعابية اللعاب دونما تبعية لإرادته في ذلك، وتفرز كبده الصفراء.. وهكذا. أما الإدراك والتفكير والنشاطات الذهنية وعمليات الموازنة والترجيح بين الخيارات، فهذه طبيعة أخرى لا مجال لحكمها بأحكام المادة، ويستحيل التنبؤ بمساراتها بواسطة قوانين الحركة والطفو والكهرباء والمغناطيس... إلخ؛ ولولا ذلك لكان علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وسائر العلوم الإنسانية، لكانت تكون ذات قدرة تنبؤ رياضية محددة وصارمة مثل علمي الفيزياء والكيمياء. وأنت ترى بأن أعظم استفادة رياضية حصلت في تلك العلوم إنما هي الاشتقاقات الإحصائية التي لا مجال للصرامة والحدية فيها، وتكون مجرد بيانات احتمالية.

إذن فالبدن من حيث عمله يختلف عن ترجيح الاحتمالات والإرادة، إذ أن عمل البدن يجري بطريق مادي في العديد من

أجزائـه، وهـي طريقـة ميكانيكيـة محـددة لا مجـال للخيـارات والترجيحات فيها، وأما الخيـارات والإرادة فتتضـمن تـرجيح أحـد الاحتمالات على الآخر ذاتياً وهو الأمر غير المعقول في المادي مما يعني أن للإنسان جنبة غير مادية تحكم خياراته.

وقد زعموا أن الاختلاف بين الجهاز البدني الإنسانـي وبيـن الروبوت أو الكمبيوتر مثلاً، هـو اخـتلاف فـي درجـة تعقيـد ودقـة التصميم لا أكثر، فقالوا: إن الإنسان يخال له أنه مختـار فـي أفعالـه، ولو بلغنا بالروبوت مستوى معين من التعقيد التصميمي لأدرك مثل الإنسان تماماً، ولأمكن تصور أن الروبوت مختار في أفعاله.

ونحـن نقـول لهـم: لـو بلـغ الروبـوت فـي مسـتوى تصـميمه مستوى التصميم الذي لبدن الإنسان، فنحن نتفق وإياكم آنذاك أنه سيكون مستعداً لتلقي المعلومات الإدراكية، ولكن هذا لا يعنـي أن الخيار نفسه ينبغي أن يكون آلياً طالما أن الروبوت آلة.

ليست نقطة الخلاف في كون البدن آلة أو لا؛ فالبـدن لـيس سوى واسطة في توصيل المعلومات إلى العالِم بها.

يقال أن المعلومات تخزن في ذاكرة الكمبيوتر، وهذا القـول فيه تسامح كبير؛ ما يخزن في ذاكرة الكومبيوتر لـيس المعلومـات؛ إنه إشارات كهربية تحلل وتركب لتظهر فـي شاشـة العـرض علـى

شكل صور وبيانات محسوسة، وهنا نحن نقول: أن الدماغ سيحلل تلك الإشارات في مرحلة ثانية ليستخلص منها المعلومات.

إذن لم تخزّن المعلومات مطلقاً في جرم مادي، المعلومات تبدأ من البعد المجرد للإنسان –عندما يبرمج الكومبيوتر أو الروبوت- وتنتهي إلى البعد المجرد من الإنسان –عندما يستخلص معلومات جديدة من توظيف الكومبيوتر أو الروبوت- وإذا بلغ الروبوت مستوىً من التعقيد في تصميمه يؤهله لاستقبال إدراك خالص –وليس حزماً كهربية فقط- فإن هذا يعني أنه لم يعد روبوتاً، بل بات كائناً حياً له بعد إدراكي مجرد، له روح.

فالانتقاء والخيار من أبلغ وأوضح المظاهر على تجرد النفس الإنسانية ولا ماديتها وعدم محكوميتها لقوانين المادة الصارمة المحددة.

فقد انتهينا من بضع براهين فلسفية دالة على تجرد النفس الإنسانية. وفي الحقيقة لا يحتاج الإنسان النبيه إلى دراسة الفلسفة حتى يكتشف بنفسه وبوجدانه الخاص هذه الحقيقة المؤكدة. إن عشرات الشواهد والدلائل التي نعيشها في حياتنا العادية تكشف بسهولة، فيما لو التفتنا إليها بتبصر وانتباه، عن بعد مجرد للإنسان يفوق البعد المادي.

فليسأل الإنسان نفسه عندما تمر به خاطرة بعيدة من الماضي: من أين أتت هذه الخاطرة؟ هل كانت محفوظة في صندوق، متحيزة في مكان ومرهونة في زمان؟ هل تخضع لسائر قيود المادة التي تحكم كل الماديات رغماً عنها؟ لماذا انفلتت هذه الخاطرة ومثيلاتها من قوانين المكان والزمان إن لم تكن مجردة غير خاضعة لهما أصلاً؟

وماذا عن الحوادث التي اشتهر نقلها حتى صنف علم معني بها، أعني خوارق العادة وعلم الباراسيكولوجيا؟ هل تنسجم هذه الأحداث والمسائل مع الظواهر المألوفة في دنيا المادة؟

ماذا عن التنويم المغناطيسي إذن، ذلك الفن الغريب في تطويع الإيحاء وتسخيره في السيطرة على نفوس الاخرين! التنويم المغناطيسي هو الآخر صناعة تدرس في الجامعات شرقاً وغرباً، والظاهر أنهم يركزون فيها بالتدريس على ما يرتبط ببعد السؤال (كيف)؛ جرياً على عادة الأكاديميات علمانية الطابع.

لكننا هنا لا نريد أن نركز على السؤال (كيف يتم التنويم المغناطيسي)، بل لنلقي ثقل استفهامنا على البعد (لماذا). هل من الممكن أن نشبع الفضول العلمي هنا فقط بواسطة هدهدة الذات

بأن المسألة مسألة إيعازات كهربية عصبية، وأن العلم كفيل مستقبلاً بكشف غوامض المسألة؟

ثم ماذا عن هذا العنصر المعروف في وسط العباقرة والمبدعين، أعني (الإلهام)؟ ليس الإلهام ظاهرة ملفتة فقط، إنها أعجوبة، أشبه بالرسالة غير المسموعة التي تبلغ النفس دونما مرور بحواجز الجسد. كثير من المشاهير تحدثوا عن تجربتهم مع الإلهام ما من شأنه أن يحير الألباب.

ينقل عن أينشتاين أنه قال بأن أصول نظريته النسبية خطرت له في رؤيا عند المنام أيام مراهقته، وأن هذه الرؤيا ظلت مرتكزة في ذهنه حتى استطاع أن يضع قواعد نظريته[١].

تشارلز ستاونز، مكتشف الليزر، كذلك يقول بأنه كان جالساً على الأريكة فواتته الفكرة دون أن يعرف كيف.

الإلهام يقفز هكذا في لحظات الاسترخاء حتى عندما يكون الإنسان بعيداً عن التركيز وأجواء العمل، ومثله كذلك اكتشاف البنزين من قبل اوغستو كولي المتوفى سنة ١٩٨٦، يقول

(١) انظر للتفصيل في هذه الأمثلة: جدلية الوعي والواقع، في ضوء ميكانيكا الكم، الأستاذ الدكتور عماد الهلالي: ص٨٩، ١٢٦.

بأنه رأى في المنام كيفية ترتب الأواصر، وهي المسألة التي شغلت باله، هكذا ألهم بطبيعة العمل المطلوب منه إنجازه، وهكذا كتبها ورسمها وطبقها بعد أن استيقظ، وكانت النتيجة: اكتشاف البنزين.

وكذلك مكتشف الجدول الدوري للعناصر مانديليف، يقول أنه اكتشفه بالحلم.

وبإمكان المتتبع أن يظفر بالكثير من الحكايات من هذا القبيل. ولا يمكننا –من تحكيم قوانين المادة فقط– أن نظفر بغير المحدودية المادية، تلك المحدودية التي لا تكفي لتفسير هذه الظواهر ذات الآفاق البعيدة.

ومن هنا نعود إلى محور البحث الرئيسي، فنقول: طالما أن البرهان العقلي قائم على وجود عالم ما وراء المادة، فإن الغائية تثبت عقلاً لهذا العالم المخلوق؛ بكل ما مر تفصيله.

خاتمة في كيفية اثبات العقائد الإسلامية:

من المسائل العويصة التي يقع فيها غير المتخصصين في الفكر الإسلامي هي الجهل بطرائق التتبع للنظام العقدي الإسلامي. إن هذا النظام مرتب بطريقة فهرسية متسلسلة، وإن الدارس له إذا

ضيّع خطوة فيه فإنه قد يجهل اتجاه السير كلّه بعدها، وهكذا يضيع كل ما تبقى من الطريق.

من الأمثلة على ذلك هو أنه عندما تثبت بعقلك وجود الله عزّ وجل، وتثبت كونه المالك المدبّر لهذا العالم، وتثبت كونه حكيماً مُنزّه عن العبث واللهو والباطل، هذا أولاً..

ثم تُثبت النبوّة وأن النبي المرسل رسول عن الله صادق فيما يقول، هذا ثانياً..

فإن النتيجة المنطقية التي تفرض نفسها تلقائياً من هذا: هي أن كل ما يؤسس على أولاً وثانياً قد اكتسب إثباته العقلي من أولاً وثانياً، ولا مجال بعد هذا للطعن في معقوليته أو للتشكيك فيه.

فبعضهم يسأل مثلاً: لماذا أنتم تؤمنون بالحج؟ وبعضهم يجيب بطريقة غير مؤسسة على القواعد، فيحاول أن يبين فوائد الحج النفسية والاجتماعية للمسلمين. ولعله لا غبار على هذا، ولكن ليعلم أنه بحسبه لا يكون سوى بناء يحتاج إلى أسس وقواعد، والمنهج الصحيح هو أن نبدأ من الأساس، فنقول: نحن آمنا بالله سبحانه وتعالى، ومن ثم آمنا برسول الله، فإذا كان الله عزّ وجل حكيماً، ومالكاً، وحقاً، ومُنزّهاً عن الباطل، وكان رسول الله صادقاً في ما يُخبر عن الله عز وجل، واستدللنا عقلاً عن كل ذلك، فمن

الطبيعي والأكيد أن الحج - بوصفه أمراً إلهياً وبلاغاً رسالياً- يكون حقاً لا لغو ولا باطل فيه.

ويأتي شخص آخر، فيسأل: لماذا حرّم الله الغناء؟ فنقول له: ألست قد آمنت بالله عز وجل عن طريق العقل، وآمنت بأنه حكيم ومنزه عن الخطأ عن طريق العقل أيضاً؟ ألست آمنت بأن رسول الله صادق في ما يخبر عن الله واستدللنا له من العقل كذلك؟ إذا كنت قد آمنت - وطريق الإيمان هو العقل- فإن هذا التحريم للغناء من لوازم الإيمان، والاعتقاد بوجاهة التشريع تابعة للاعتقاد بحكمة المشرِّع وتنزهه عن العبث والباطل، وليس أنها تابعة للآراء المبنية على النوازع النفسية والعواطف الموهمة.

إن أصل الدين والإيمان به يأتي بالعقل إذ لا يجوز أن يعبد الإنسان الله تعالى من غير أن يقيم الدليل عليه فلا بدَّ أولاً من التدليل عليه عقلاً.. وعليه فإن قبولنا بالصوم والصلاة والحج وحرمة الغناء وسائر العبادات ليس تعبداً محضاً من غير دليل، بل نحن أتينا بالدليل على وجود الله تعالى واستدللنا على حكمته وعلمه وقدرته، وأنه منزه عن العبث واللهو وأنه خلق الكون الواسع الكبير بمنتهى الاتقان؛ فحكمته في خلقه وكونه وصنعه هي ذاتها حكمته في تشريعاته.

هذا نظير ما لو أن أحدهم أراد أن يرسل مبلغاً كبيراً الى بغداد، فعليه أولاً أن يسأل عن شخص ثقة يحمله معه، وعندما تحرى البلد قالوا له فلان ثقة، وأرسل المبلغ بيده ووصل المبلغ الى صاحبه..

وعليه إذا أراد صاحبنا أن يرسل المبلغ ثانية فلا داعي لأن يسأل من هو الثقة لأنه عرف بالأدلة السابقة أن فلاناً هو الثقة، فيرسل المبلغ معه من غير أن يسأل.. وهذا الحال كما نحن في التشريعات التعبدية التي تلزمنا بالتعبد، إذ أن اعتمادنا على الدليل على وجود الله وعلمه وحكمته ونفاذ حكمته في تشريعاته فلا داعي إذن في هذه التعبديات للسؤال عن حكمتها..

إن بعض القضايا قد لا يمكن إثباتها مطلقاً بالنظر إليها بحد ذاتها، ومع هذا فإنها لا تنفك عن الإثبات المؤكد النابع من عدم استقلاليتها وتبعيتها لقضايا مثبتة إثباتاً صريحاً مؤكداً في مرحلة سابقة، وقد يطلق على هذا المعنى في الفكر الإسلامي (التسليم)، والذي هو بالأساس ليس تسليماً محضاً وإنما قد تأسس على نتائج عقلية سابقة، كما في بعض الروايات، فعن علي بن الحسين عليه السلام:

(إن دين الله عز وجل لا يصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، ولا يصاب إلا بالتسليم)[١].

ليس الفكر الإسلامي وحده الذي يؤسس أفكاره بهذه الطريقة، بل إنه حتى العلم المعاصر اليوم لا يستطيع أن يستغني عن فروض قبلية يشتغل عليها لإثبات نتائجه المؤسسة على تلك الفروض، والتي هي من خارج العلم أصلاً.

فإن علوم كل حضارة تعكس الأصول الفكرية والميول الأساسية لتلك الحضارة، ولها علاقتها الوثيقة بالرؤية الكونية لتلك الحضارة[٢]. والعلوم التي شاعت بين المسلمين وتلبّست تدريجياً بلبوس العلوم الإسلامية ذات علاقة قريبة جداً بالأصول الدينية والنظريات الكلية للإسلام حول عالم الوجود، كما إن العلوم الطبيعية الحديثة ذات ارتباط تام بالفلسفة التي شاعت في القرن السابع عشر الميلادي في أوروبا. العلوم التي تظهر في كل حضارة مرتبطة بالأصول الدينية والفلسفية والنظريات العامة لتلك الحضارة حول العالم[٣].

(١) مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٢٦٢.

(٢) حسين نصر، الدين ونظام الطبيعة: ص١٦٥-١٦٦.

(٣) حسين نصر، آراء المفكرين الإسلاميين حول الطبيعة: ص١٠.

ويرى توماس كوهن أن المرجعية تترك تأثيراتها في كل الانشقاقات الفرعية للعلم، وكل مرجعية قد توجِّه العلم وتسير به بطريقة تفضي الى تمخضه عن نتائج خاصة. مثلاً: ذرة الهليوم بالنسبة الى عالم الكيمياء جزيئة، لأنه في ضوء نظرية حركة الغازات يتصرف الهليوم كغاز. أما بالنسبة الى عالم الفيزياء فذرة الهليوم ليست جزيئة لأنها لا تفرز طيفاً جزئياً. تجربة كل واحد منهما في حل المسائل تقول له ماذا يجب أن تكون الجزيئة. إذن، اختلاف المرجعيات له آثار واستحقاقات مهمة[١].

ويستند الجهد العلمي بوعي أو دون وعي الى بعض المبادئ العامة التي تُعرف بأنها (المبادئ الموجّهة) بالكسر، أو (المبادئ التنظيمية) وهي عبارة عن فروض ميتافيزيقية تؤمّن اطاراً للبحث العلمي. لقد كان ديراك يعد الطابع الرياضي للنظريات شرطاً في قبولها، بينما يرى هايزنبرغ أن المعيار في ذلك هو البساطة الرياضية، وفي المقابل تمثل وحدة الخلق وانسجامه مبدأ مهماً في الإسلام. ويعجز العلم أساساً عن العمل دون الاستعانة بالفروض ما وراء العلمية، فنلاحظ مثلاً أن فرض كون التجارب ظواهر طبيعية

(١) توماس كوهن، بنية الثورات العلمية: ص١٢٣-١٢٤.

و... الخ، هي فروض توظف دائماً في البحث العلمي، الأمر الذي يدلّ على أن العلم ليس مكتفياً بشكل ذاتي في هذا المجال، كما أصبح من الواضح اليوم أن تبني نظريات العلم يتأثر بالفروض الماروورائية وحتى بالعقائد الدينية التي يطرحها العلماء. فما يطرحه العلم من قضايا تتعارض مع المبادئ الميتافيزيقية يمثل في حد ذاته مقولات فلسفية لا تقع داخل العلم، وعلى سبيل المثال فقد أذعن ماكس بورن عام ١٩٢٦ أن ما أنجزه في الذرة كان تعميماً فلسفياً لا فيزيائياً[١].

وعلى كل حال، فإن الفروض التي تحكم مبحث علّة الخلق والغاية من الوجود يتأسس على مقدمات، منها إثبات الحكمة في خلق العالم وحكمة الصانع، فحيث دلنا العقل على وجود الله تعالى وتوحيده، ودلنا صدق النبي ومعجزاته على الإيمان بصدق إخباره عن الله وتبليغه للرسالة، فتكون النتيجة في ضوء ذلك واضحة حينئذ.

(١) Max Born (On the Qantum Mechanics of Coilisions) in Quantum Theory and Maesurnent, ed, J. A. Wheeler and W.H. Zurek, p.54.

هـذا والحمـد لله ربّ العـالمين وصـلى الله تعـالى على خيـر الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

الفهرس

الفصل الثالث: